FILALI

MA'A AL-SHAYTAN

2269
.35937
.378

2269.35937.378
Filālī
Ma'a al-shaytān

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073552653

ابراهيم هاشم فلالي

مع الشيطان

مجموعة قصص

الطبعة الأولى

دار مصر للطباعة
٤٠ شارع كامل صدقي باشا (الفجالة)

ابراهيم هاشم فلالى

Filāli, Ibrāhīm Hāshim

Ma'a al-shayṭān

مَعَ الشَّيْطَانِ

مجموعة قصص

الطبعة الأولى

دار مصر للطباعة

٤٠ شارع كامل صدقى باشا (الفجالة)

الإهداء

إلى بانى نهضتنا الأدبية ، وحامل لوائها ، صاحب السعادة الشيخ محمد سرور الصبان . اعترافاً بجميله ، وتخليداً لأياديه البيض على الأدب والأدباء ؟

ابراهيم هاشم فلالى

65-14

2269
.35937
.378

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ عبد الله عبد الجبار

عرفته فى دنيا الحياة حراً أبياً ، اصطلحت عليه الأحداث ، فلم تفل من عزمه ، وأحدقت به المصائب فلم تزحزحه عن معقله ؛ وما معقله إلا ضمير حى مترفع عن الدنايا . . . بل لم تزده الآلام إلا إيماناً ومضاء ونفاذاً وقوة ! !

وعرفته فى دنيا الشعر شاعراً احتسى (صبابة الكأس[1]) وأغرق همومه فيها حتى إذا سلكته فى عداد معاقريها ، راعنى منه أنه لم يشرب الخمر إلا شعراً ينفس به عما يضطرم فى صدره من بركان :

نفشت الشعر من صدرى فنوناً تعجب الناسا
وقلت الخمر أشربها علاجاً تدفع الباسا
وقلت مدامتى يحكى سناها التبر والماسا
ولا والله ما رشفت شفاهى الخمر والكاسا

وصحبته فى ديوانه (الحانى) فإذا هو مفتن ينظم فى كثير من الأغراض والفنون ، وإذا هو لا يناجى ربة الشعر بالقصيد ؛ إلا إذا اهتزت نفسه واضطرمت أحاسيسه . وقد أشجانى أكثر

---

(١) اسم ديوان صغير للشاعر .

ما أشجانى فى ديوانه (الحانى) شكواه من بلواه ، وتصويره الرائع لصروف الدهر وآلام الحياة . استمع إليه وهو يقول من قصيدة (دمعة الأيام) :

أعيش يحفنى الخطر بى الأرزاء تأتمر
أمد إلى العلا خطوى فيرجع خطوى القدر
كأنى دمعة الأيـ ام تذرفها فانحدر

* * *

صمدت لكربتى فأبت كروب الدهر تنحسر
إذا ذللت إحداها أتتنى بعدها زمر
أكافحها فيبدهنى كمين خلفها خطر

* * *

سلوا الأرزاء لو نطقت لقالت اننى عسر
القاها فألقيها كأن جموعها أكر
ولكن خاننى حظى ولم يسعدنى الظفر

وفى مثل هذا الثوب الخفيف القصير الراقص يجلو كثيراً من أغراض شعره فى المديح والغزل والمناسبات واستنهاض الهمم و و . . . الخ . استمع إليه وهو يستحث العرب للنهوض ويدعوهم إلى أن يرهفوا أسلحتهم ويحتشدوا للحرب :

يا شعب يعرب وثبة . . نشفى بها الصدر الكظيم
فارهف سلاحك واحتشد للحرب تبلغ ما تروم
ودع الكلام فليس ينـ فع للعدا قول الكليم

ماذا أفدنا بالخطـــا بة والقصائد والنغوم ؟
هل رد مظلمـــة العرو بة لحننا الهـادى الرخيم
ما القول مجد فى الحجا ج وليس ينفعنا الرقيم
فذر المحجة تبـــدها شم المدافع بالهـــزيم
بالسيف لا بالقول يأ خذ حقه البـلد الهضيم

ذلكم هو الشاعر الحجازى (الحساس) الأستاذ ابراهيم هاشم فلالى ، الذى يبرز اليوم (قصصياً) يشـترك بمجموعته الصغيرة فى معرض الفن القصصى الـكبير ، أشبه شىء بمن يعرض صناعات البادية ، ومنتوجات الصـــحراء فى معرض الفن الإيطالى أو الفن الفرنسى .

وهذه المجموعة من الأقاصيص تتفاوت فى الطول ، وتتباين فى الأداء وتختلف فى مدى انطباقها على قواعد الفن القصصى وأصوله ؛ ولـكنها جميعا تشترك فى سمة أصيلة واحـدة وهى أنها مقتبسة من صميم المجتمع ، منتزعة من واقع الحياة .

وقد أتيح لى أن أقرأ بعض هذه القصص وحدى ، وأن أقرأ بعضها مع المؤلف ، وتناقشنا فيها مليا . . ولم أتفق معه فى الختام الذى انتهت إليه قصة (المطلقة) — وهو أنها اتخذت لنفسها رباطاً من الأربطة تقضى فيه بقية حياتها ؛ ذلك أنه هيأ نفس القارىء وذهنه إلى أبعد من هذا المصير كأن تنتحر مثلا ، أو أن يجن جنونها فإذا هى تهذى فى الطرقات ، أو يصيبها الإغماء العقلى

من هول ما حدث فتمضى على غير هدى فإذا سيارة تدهمها وقبل أن تقضى تتمتم شفتاها بحمد الله على الموت الذى أنقذها من حياتها التعسة المنكودة . وهكذا . .

وقد حاول المؤلف فيما حاول أن يرسم بعض السمات المحلية الحجازية فوفق حيناً وأخفق حيناً ، وهو فى الحالين مشكور على ما حاول . .

أما قصته (مع الشيطان) التى وسم بها هذه المجموعة فهى قصة قامت على سوقها ووقفت على قدميها ، جزلة الأسلوب ، قوية الأداء . . هى قصة الإنسان الذى تجاذب أطراف الحديث مع الشيطان ! ! هى حكاية كل يوم ؛ حكاية الصراع بين الرجل المتعلق باذيال المثل ، وبين المجتمع الصاحب الذى لا يسوده إلا الملق والنفاق والكذب والزور والبهتان واللعب على الحبال . حتى إذا شعر بأنه سيموت وهو حى ، نزع من قلبه تلك الإبرة الحساسة التى يسمونها (الضمير) وداس على مثله وجرى مع التيار وسار مع الشيطان .

ويلوح لى أن الأستاذ الفلالى حين يمسك بالقلم ليكتب قصة ، تلح عليه الفكرة الأساسية الحاحاً شديداً ، وتستبد بعقله وقلبه ، فينسى حيناً أن يصور الجو العام ، وحيناً أن يرسم الظلال ، وحينا أن يدقق فى إبراز ملامح الشخصيات ، وحيناً آخر مايلابس الأحداث من ظروف الزمان أو المكان . ولكنك مع إفتقاد

هذا العنصر أو ذاك ، لا تملك إلا أن تتجاوب معـــه وتنفعل بانفعاله ، وتستجيب لآرائه وخواطره ، ذلك أنه صادق الأسلوب وصدق أسلوبه نابع من نفسه ناجم من صدق حسه .

وبعد ، فهذا هو الأستاذ (الفلالى) كما عرفته فى دنيا الحياة وفى دنيا الشعر والقصـــة . . وإنى لأرجو أن يستمتع القارىء العزيز بما استمتعت به فى قراءة هذه المجموعة من أنسة روحية ، ومتعة نفسية ، وأن تؤثر فى نفسه كما أثرت فى نفسى فهى خليقة أن تثير كثيراً من الخواطر ، والأفكار . وخير الأدب — كما يرى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين باشا — هو ما يثير فى النفس الخواطر ، ويبعث فيها الأفكار .

عبد الله عبد الجبار

القاهرة { ٧٠/٦/١٨ ٥١/٣/٢٧

مقـــدمة

قد لا يرضى الفن القصصى عن هذه الحكايات الست فيدخلها فى نطاقه . ولكنها سترضى القارىء لأنها تنقل إليه صورا صحيحة من صور الواقع الذى يزخر بمثل هذه الصور .

وسوف تثير فيه — إذا كان ممن يهمه أمر مجتمعه — العناية والاهتمام به فيلطف ما وسعه من هذه الحدة القاسية ، التى نكب بها المعذبون فى الأرض من إخواننا فى الإنسانية ، ويجب ألا يحتقر الفرد — مهما كان وضعه فى الحياة — عمله فى تلطيف هذه الحدة ؛ فيكفى أن يمتنع عن إتيان بعض الحماقات فى نطاقه ، مهما كان ذلك النطاق ضيقا ، فإنه سيفيد مجتمعه بذلك ، ويكفى أن يواسى منكوبا بمستطاعه ، ولو كان مستطاعه كلمة إحسان ، على أن لا يضن بمستطاعه إذا كان يمكنه أن يصنع أكثر من كلمة .

وتلك هى الغاية من القصص سواء أكان فنيا يتفق مع أصول الفن وتشريعاته أم لا يتفق معها ؛ وأنا بكلامى هذا لا أهون من شأن الفن القصصى الرفيع ، وأعترف أن للفن الرفيع أثره البعيد فى تحريك المشاعر الإنسانية .

غير أنى أرى إرسال النفس على سجيتها لا يخلو من فن أو هو جزء يعتبره الفن القصصى من أركانه التى لا يستقيم بناؤه بدونه .

ولنا فى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين باشا أسوة حسنة ، فإنه يطلق نفسه على سجيتها فى كتابيه الوعد الحق والمعذبون فى الأرض ، ولم يتقيد بأصول الفن القصصى المتبع . فكان لكتابيه الأثر المدوى فى النفوس والأفكار ، ولا أزعم لنفسى أنى بلغت ما بلغه العميد الكبير . ولكن توخيته فى طريقته ولعلى أكون أكثر إحسانا فى عرض صور أخرى فى المستقبل إن شاء الله .

ولا يفوتنى أن أقول للقارىء أن هذه الصور كتبت منذ أربع عشرة سنة ، وكان بعضها من وحى الحجاز وبعضها من وحى مصر . كما أن بعضها نشر فى صحفنا المحلية ولم أدخل إلا بعض الزيادات التى اقتضاها مرور الزمن .

وأنى أدفعها إلى أيدى القراء — على علاتها — فإن كان لها صدى فى نفوسهم فسوف أكون سعيدا لأنى أعتبر نفسى حينذاك مشاركا فى بناء نهضتنا الأدبية وإن لم يكن لها صدى فيكفى أننى لم أبخل بمجهودى ، ولم أضن بمستطاعى ؟

ابراهيم هاشم فلالى

الروضة : غرة رجب سنة ١٣٧١ هـ

مع الشيطان

كان (. . .) على اعتداده بنفسه وصلابة رأيه وصريح قوله وأنفته ، طيب القلب ، سليم النية ، وفيا لأصـــدقائه ، تملأ قلبه الرحمة ، وتفيض جوانحه بحب الخير والإحسان ، وكان إلى جانب ذلك طموحا نزاعا إلى المجد دؤوبا فى طلب الشهرة غامر فى معترك الحياة وصارع الأحياء ونازعهم فيما يتنازعون فيه من طلب المجد ونوال الشهرة ولـكنه كان مغامرا شريفا ، ومصارعا عفا ومنازعا نبيلا لايعرف الختل ويكره المداجاة ، باطنه كظاهره وفعله كقوله ولـكنه كان سيء الحظ فلم ينل — على كثرة ما بذل من الجهد مما تسمو إليه نفسه شيئا ، وكلما ناله إنما هو دون همته وأقل بكثير مما يريده لنفسه . أما فى نظر صغار النفوس فقد نال أكثر مما يستحق فناصبه بعض أقرانه ممن أكل الحسد قلوبهم العداء لتوهمهم بأن اسمه غطى على أسمائهم وشهرته فاقت شهرتهم وراحوا يتعاقدون على هدمه ويتعاهدون على هزيمته ، فألبوا عليه بعض من لاخلاق لهم ببث الدعاوات الـكاذبة حوله ، فسعوا سعيا حثيثا فى النيل من كرامته عند كل جماعة وفى كل محفل ، ووصموه بكل ما راق لهم أن يصموه به من التهم الملفقة والوصمات الباطلة ، فـكان لذلك أثر فى سمعته لأن النفوس أسرع ما تـكون تصديقا للمغامر . وأميل إلى استماع السوءات . ولـكن أروع ما راع خصومه منه

أن كل ذلك ما أثر فى عزمه ولم يقف به عن المضى فى السبيل الذى رسمه لنفسه ، وكما نشط فى عمله نشط على رد افتراءاتهم بالحجج الدامغة مما جعل خصومه ينتقلون من ميدان الدعاوات الباطلة التى تغلب عليهم فيها إلى ميدان الدسائس وتلفيق التهم وإلصاقها به ، واستعانوا عليه بالوشاة والنمامين . فلم يدعوا صديقا من أصدقائه إلا وشوا به إليه ، وصاروا يبرمون مكائدهم فى الجهر والخفاء وينفثون وشاياتهم بالمكر والدهاء . فتنكر له الناس ومن بينهم أصدقاء أعزاء .

رأى علامات الفشل تنقض على أعماله وبوادر الهزيمة تسرع إلى مشاريعه وفت فى عضده أن أشياعه ومحبيه لا يتورعون عن التآلب عليه مع خصومه ولا يتحرجون عن ممالأة أعدائه ورأى أنه لا يقوى على محاربة هؤلاء بمثل ما يلجأون إليه من النذالة فى الأقوال والأعمال وروع لذلك وارتد عن المعترك كاسفا حزينا .

انفض من حوله الأعوان وانتاشته قذائف اللوم من كل مكان لأنه ما وارب ولا داهن ، وعدت صراحته خشونة وجفاء ، وتشبثه بالصدق والوفاء حمقا وغفلة ، وشدته وثباته فى الدفاع عن رأيه وعقيدته طيشا ورعونة ، ورحمته وتواضعه جبنا وذلة ، واعتداده بنفسه عجبا وزهوا ، وأنفته كبرا وعتوا ، ونزوعه إلى المجد نزوعا إلى الضلال وركونا إلى الغاية التى لا تدرك ، وأسقطته بيئته من حسابها سقوط الأموات غير المأسوف عليهم .

عجب لهذا واستهوله وضاقت به نفسه فكان لا يرى إلا ساهما واجما تلمحه فلا تلمح فيه إلا شبحا مكونا من الألم والمرارة وتتصل به فلا تتصل إلا بشخص تضطرب فيه ظلمات اليأس بأضواء الأمل وتتصارع فيه دوافع الجد بعوامل القنوط ، ثم هو بين هذا وذاك كالحبل قبض على طرفيه عاملان قويان أحدهما يجتذبه إلى تطليق الحياة الصاخبة العاملة ويميل به إلى حياة الدعة والهدوء ، والآخر يجتذبه إلى مقابلة المعترك واستئناف الصراع وهو إلى الثانية أميل .

ولكنه يريد التزود بما يستعين به على مكافحة الحياة ومصارعة الأحياء بزاد جديد . يريد زادا حديثاً غير زاده القديم ، ذلك الزاد الذى لم يقو على مقابلة الحياة . لأن ما وجد فى الحياة من مستحدثات الأخلاق والخصال تركت تعاليم الفلاسفة والمصلحين والحكماء والأخيار لا تعمل فيها ، ولا تصلح لها . وما ذلك إلا لأن تلك التعاليم القديمة لم تنبع من الأرض ولكنها هبطت من السماء .

كنت لا أترك مواصلته فيمن تركها ، وكنت أزوره بين الفينة ، والفينة ولكنى كنت أضيق من سكوته ووجومه إذا ما زرته . وكأنه لا يشعر بوجودى وأنا بجانبه حتى إذا ما نبهته إليه قال لى : إنى أريد أن أحيا على الأرض ولكن أفكارى متعلقة بالسماء ولا يستطيع من يستوحى السماء مسترشدا بها أن يحيا مع الناس حياة طيبة . لأن الناس أرضيون لا يصلح لهم إلا

من كان أرضيا مثلهم لا علاقة له بالسماء وما ينزل منها . وما تراه من وجومى إن هو إلا أثر من آثار المعركة القائمة بين أفكارى المتعلقة بأسباب السماء وبين ما تنزع إليه نفسى من الميل إلى كل ما هو أرضى . وقد عز على المعين وأختفى من أمامى المرشد النصوح . ولم أعد أستطيع التميز بين الخطأ والصواب .

فكنت لا أجد فى كلامه هذا إلا هذيانا كهذيان المحموم فأقول تلك حمى الصـــدمة التى فاجأته وصدمه بها الناس ، وهذا هذيانها . وأنصحه ألا يستسلم لمثل تلك الأفكار السود ولكنه لا ينصت لكلامى ولا يستنصح بنصيحتى . ويدعنى بجواره كالقطعة المهملة ثم يستغرق فى وجومه وسهومه فأودعه وأنصرف . ولقيته بعد . فإذا السهوم والوجوم اللذان كانا يلوحان على محياه لا أثر لها وقد علت فمه ابتسامة تنم عن الرضا والطمأنينة . فما تمالكت أن بادرته بقولى :

— هل فتحت أمامك أبواب كانت مغلقة ؟ أو هل فوجئت بكنز كنت لا تأمل وصوله إليك ؟

— وما حدا بك لأن تقول لى هذا يا صديقى . . .

— لأنى أراك اليوم غيرك بالأمس يسودك مرح وعلى فمك ابتسامة

— اجلس — يا صديقى — اجلس . . فلقـــد انفتحت لى أبواب الفوز على مصاريعها ووقعت على كنز كل ما فيه يضمن لى النصر بعد الهزيمة والفوز بعد الخذلان .

— مرحى . . مرحى يا صديقى فلقد امتلأ الآن قلبى بهجة وأكاد أطفر من الفرح لارتداد رشدك إليك .

— ما عدوت — فى تعبيرك — الحقيقة فقد ارتد إلى رشدى بعد ما كنت تائها فى ضلالات الحمق ومتاهات الجنون .

— استغفر الله لم أقصد .

— لا — يا عزيزى — كنت أحمق بحق . . وكنت فى جنون مطبق .

— جنون مطبق ؟ لا سمح الله .

— نعم جنون ومطبق أيضا . . ألا تعلم أن التقيد بالأخلاق السامية وحمل النفس عليها جنون مطبق ؟

— وه . لا . . لا . . أنا لا أقرك على هذا يا صديقى أبدا .

— وأنا لا أحبك أن تكون غبيا . وتفزع من الحقائق فزع البله . اسمع فلقد انقشع عنى غشاء الوهم الذى ما زال يغشى عيون الأغبياء وانفتح أمامى باب لو قدر لى فتحه من قبل أن ألقى الحياة بما لقيتها به لما استطاع الناس أن يعملوا معاولهم فى هدمى . ولكنت من البارزين بين الأحياء ولأضفيت على حلل الوجاهة والأكبار من كل مكان .

— أوضح فلا أكاد أفهم مما تقول شيئا .

— لا أريد أن أوضح لك أكثر من ذلك .

— ولم ؟

— لأن الإيضاح ربما يفزعك وأنا لا أريد الإباحة بشيء .

— ما عهدتك تخفي عني شيئا منذ صحبتك .

— لقد تغيرت الأحوال فلم تعد تلائمني ولم أستطع أن أتفق معك في شيء كما كنا قبل .

— ألست أنت أنت وأنا أنا ؟

— أما أنت أنت فنعم . . أما أنا أنا فلا . لأني قد تغيرت وتغيرت نظرتي إلى الحياة . أنت تنظر إليها بمنظار وأنا أنظر إليها بمنظار آخر . . وخير لك أن تبتعد عني .

— إنك تحاول بقولك هذا أن تخفي عني شيئا وما هكذا يعامل الأصدقاء .

— أنت تحاول أن أطلعك على شيء خطير .

— وهل افتقدت ثقتك بي حتى تخفي عني هـــذا الشيء الخطير ؟

— لا ثقة لي — الآن — بأحد !

— فأغضيت عن هذه وقلت :

قلت لي : إنك وقعت على كنز . . وأنا لا أطلب إليك أن تشركني فيه . . ولكني أود لو حدثتني عنه . . فهل تضن علي حتى بالحديث ؟

— إن الكنز الذي عثرت عليه ، لم يكن من كنوز ألف ليلة حتى يشوقك الحديث عنه ، ولكنه كنز من صنف آخر . .

— وذلك مما يزيدني شوقا إلى استلهام أخباره .

— ذلك كنز ما وقع لأحد إلا طأطأت له شم الأمانى ولانت له أقسى الغايات .

— إنى وإياك سيان فيما نالنا من وصب الحياة وشرور الناس ، وأنا وأنت إنما نشكو من عثار الجد وخيبة الأمل فإن أنت حدثتنى عن كنزك ربما نتحد فى المشرب ونتفق على العمل .

— قد بدا لى أن أخبرك بما وقعت عليه ولكنى أخشى إن أطلعتك على جلية الأمر أن تأخذك الرهبة ويستولى عليك الفزع ثم لا آمن أن يخامر نفسك منى شىء فتذيع عنى ما أحب أن يكون مستورا .

— أما هذه فكن فى أمن منها . ثم لى الخيار — فيما بعد — فإما اتفقت معك أو تركتك وشأنك فيما أنت آخذ بناصيته .

— إنى لا أتوسم فيك التعاون ولا الاتفاق معى ولكنى أتوسم فيك الكتمان .

— سأكتم ما تخبرنى به إذا كان ذلك يسرك .

— إذا فلأحدثك بكل ما كان فأصغ لى جيدا ولا تقاطعنى .

— كلى آذان مصغية .

— إن ما حل بى من الناس — مما أنت به عليم — جعلنى أفكر فى أمر الناس وأستعرض حياتهم المختلفة فى شتى أدوارهم التاريخية فوجدتهم ويا لهول ما وجدتهم عليه أشد ما يكونون تعلقا بمن يخادعهم ويمكر بهم ويستعلى عليهم ، وأشد ما يكونون

نفورا وابتعادا عمن يصدقهم القول ويناصحهم العمل . انظر إلى الأنبياء والمرسلين والحكماء والمصلحين قضوا حياتهم وهم أشقى الناس بالحياة وأهلها .

* * *

أخرج الناس موسى شريدا طريدا من مصر ، ولم ينج عيسى من فتكهم إلا لما رفعه الله إليه ، وألقوا بإبراهيم فى النار ، وجنوا على يوسف وألقوه فى غيابة الجب ، وضربوا محمدا حتى أدموه وأخرجوه من بلاده كرها ، وقتلوا عثمان بن عفان ، وألبوا على على بن أبى طالب ، وفتكوا بابنه الحسين بعد أن سموا أخاه الحسن ، وسموا الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز كما سموا من قبله سقراط الحكيم ، وكم أحرقوا من حكماء ، وكم صلبوا من نجباء ، وكم أدخلوا الفزع على العلماء ، ما ذنب كل أولئك ؟ ليس لهم ذنب سوى طيبتهم وصدقهم وحبهم للناس يريدون لهم الخير ، ولكن الناس أبوا إلا أن يصنعوا بهم ما صنعوا .

وهل أله الناس ومجدوا غير من مكر بهم وخادعهم وتجبر عليهم . ألم يؤلهوا فرعون ؟ ويخنعوا للنمروذ ؟ وينقادوا لبختنصر ؟ ويطيعوا جنكيز ؟ ويذلوا لجبابرة الحياة من أمثال هؤلاء وغيرهم . ولا أذهب بك بعيدا فهذه صفحات الحياة ، قلب نظرك فيها . فهل ترى طيبا من الناس إلا وهو معضوض من الحياة بأنيابها القاسية ؟ وهل ترى خبيثا منهم إلا وهو من الحياة

إنسانها ؟ لا يدرى الأول ما نعيم الظل ؟ وما برد العيش ؟ وما أنس الرفقاء ؟ ولا يدرى الثانى ؟ ما جحيم الهاجرة ؟ وما وطأة البرد ؟ وما هى وحشة الانفراد ؟

— فكرت فى كل ذلك . وذهب بى التفكير إلى أبعد من ذلك . . إلى التفكر فى تعلق الناس والتفافهم حول الشيطان وهو اللعين الرجيم وابتعادهم عن الله وهو خالقهم ورازقهم والمحسن إليهم . يحذرهم الله من الشيطان ويخبرهم أنه عدو لهم ولأبيهم من قبل فيصمون آذانهم عنه ويجرون خلف الشيطان حتى اتخذوه وليا حميما . وحتى اتخذ منهم أصدقاء ومريدين فأطاعوه أكثر من طاعتهم لبارئهم فهم وإن كانوا يستعيذون منه فى كل وقت بأفواههم إلا أنهم يرون بقلوبهم أن الفوز فى اتباعه والنجاح فى موالاته . ألم ترهم يصمون آذانهم إذا تليت عليهم آى الذكر الحكيم ؟ وتنفتح قلوبهم إذا ما خاطبهم الشيطان من خلف المزامير والعيدان حتى لا تسمع لهم نأمة وهم له مهطعون .

لقد اجتذب الشيطان الناس إليه بشعرة رقيقة الملمس قوية الجذب حتى تركهم يتعلقون به ويستمعون إلى تعاليمه وينفذونها فى أقوالهم وأعمالهم رغم معرفتهم بأنه إنما يزين لهم السوء والمكروه ويغريهم على الفحشاء والمنكر . فإذا أتوها قال لهم إنى أخاف الله رب العالمين .

— إنها لمقدرة غريبة أوتيها الشيطان .

— ولكنها ظاهرة أغرب من هؤلاء الناس .

— صحيح . .

— كان لهذه الفكرة ونتائجها أن ألقيت على نفسى هذا السؤال وهو لم أتخذ من الشيطان مرشدا أستوحى منه أفانين (الأبلسة) فى معاملة الناس لعلهم يؤمنون بى على كره منهم كما آمنوا بالشيطان وهم له كارهون .

— أعوذ بالله أو تريد أن تكون تلميذا للشيطان وعدوا لله ؟

— استعذ أو لا تستعذ . واسمع بقية خبرى أو فقم .

— تكلم . .

— وما كاد هذا الخاطر يتلجلج فى صدرى حتى قمت أبحث عن الشيطان لأنى وجدت فى هذه الخاطرة ضالتى المنشودة بعد أن عز على المرشد وغاب من أمامى المعين .

— هيه . .

— بحثت عن الشيطان بغية أن أراه وجها لوجه ولكن اللعين أسدل على نفسه سترا من ستر (أبلسته) واختفى وراء حجب كثيفة من حجب (شيطنته) حتى كدت أقنط من لقياه . وحدثتنى نفسى بالنكوص عنه وعن البحث عليه وكأنه استشعر ذلك منى .

— وكيف استشعر ذلك ؟ وهل كان الشيطان يعلم الغيب ويدرى بهواجس النفس ؟

— كأنك لم تقرأ أو لم تسمع من العلماء « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فى عروقه » ؟

— بلى . . بلى . لقد سمعت ولكنى أنسيته .

— وما أنساكه إلا الشيطان .

— لم أذكره كثيرا .

— ولكنك تستعيذ منه كثيرا وكفى بالاستعاذة منه ذكرا له .

— عليه اللعنة .

— فليكن . . غير أن الشيطان لما شعر بقرب قنوطى من لقياه عز عليه أن أفلت من بين يديه فبدا لى متمثلا على حقيقته .

— وكيف كانت حقيقته ؟

— كما تتصور أنه من بشاعة المنظر وتشويه الخلقة ونتن الريح وقذارة الأطراف فى القمة تتقزز منه النفوس وتلفظ رؤيته الأبصار .

— ذلك من غضب الله عليه ومقته له .

— هو ذاك .

— وإن من كانت هذه صفته جدير بابتعاد الناس عنه .

— ولكنه إذ يبدو للناس لا يبدو لهم على حقيقته وإنما هو يلبس لهم لبوسا يستهويهم ظرفا وخفة ، ويخلبهم أناقة ورقة . ويستروحون منه أريجا يصبى وعبيقا يسكر ويرون من شمائله فتنة يضل بها الحليم ويتيه فى بيدائها القوى العظيم .

— كأنه يبدو لهم فى شكل غانية .

— وفى شكل عذراء أيضا .

— وكيف بدا لك على حقيقته ؟ ولم يبد لك كما يبدو للناس .

— ظهر لى على حقيقته لأنى كنت أظهر له على حقيقتى فى الرغبة والبحث عنه .

— والناس !

— الناس يضمرون اتباعه ولكنهم لا يصرحون بذلك فهو يخادعهم كما يخادعونه .

— عظيم . .

— صحيح أن الخداع لعظيم .

— ثم . .

— ثم لما رأى الشيطان علائم التقزز والاحتقار جلية واضحة فى وجهى ازدراء بشكله انقلب إلى شكل آخر محترم مغر وكأنه إذ يتشكل كأنما يغير لبسة بلبسة أخرى دون ما جهد أو تكليف ولا يستغرق فى ذلك أكثر من لمح البصر . وهنا وقعت مشكلة . إذ تحيرت فى اختيار الاسم الذى يليق بى أن أدعوه به أأدعوه باسمه ؟ أم أنتحل له اسما يشعره بالتجلة ؟ ثم قام فى نفسى أن أسأله لئلا يبدو منى ما قد يغضبه .. فدار بينى وبينه هذا الحديث فقلت :

— بماذا أدعوك وأى الأسماء أحب إليك ؟

— أتهزأ وتسخر ؟

— عفوا . لم أقصد إلى شيء من ذلك .

— إذا فلماذا السؤال السخيف ؟ واسمى لديكم أشهر من أشهر الأسماء . يعرفه الصغير والكبير والعاقل والمجنون والعالم والجاهل والرجل والمرأة .

— الحق إنى أسخف مما تتصور ، ولى مندوحة ... فلم يسبق لى أن خاطبت إبليسا وجها لوجه ، ولم يحدث أن تشرفت بمثل هذه الخلوة مع ... مع أمثالكم .

— لا تدعنى بغير اللعين الرجيم وذلك ما سمانى به ربكم وأطلقتموه على يا بنى آدم من زمن أبيكم .

— لعلك تكره أن أناديك بهذه الأسماء وما أتيتك لأسمعك ما تكره .

— هأ ... هأ ... هأ ... تأبون يا بنى آدم إلا أن تقيسوا الأشياء بمقاييسكم وتحكموا على الكائنات بأوضاعكم . فمتى كانت الشياطين تقيم لأوضاعكم ومعارفكم وزنا ؟ أنا لست مثلكم يا بنى آدم أكره الذم وأنا صاحبه ، وأحب المدح وأنا لست من أهله .

— إن للمدح أثراً طيبا فى النفوس .

— ومن ذا الذى جعل للمدح أثرا طيبا فى النفوس وللذم أثرا كريها فيها غير الإنسان . . هذا الإنسان المغرور الذى لا يرى شيئا يعادله فى الوجود وهو لا يعادل أدنى ما فيه . . ادعنى

بما شئت . . سمنى رجيما . . سمنى طريدا . . سمنى لعينا . . كلها أسماء لم تزد على كونها أسماء لا أقل ولا أكثر ، وضعتموها أنتم علما لى وحملتموها من المعانى الكريهة التى قامت فى أذهانكم ماحملتموها ولا أراها إلا أسماء مجردة من كل معنى . . أما ما تحمل من المعانى المكروهة فى أخيلتكم فذلك لا يضيرنى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم من قبل .

— المعذرة ... المعذرة ... فلم يسبق لى علم بأوضاع الشياطين واعتباراتهم ، ولكن خاطبتك بمألوف البشر .

— قد يكون للبشر فيما ألفوا العذر إذا أحبوا المدح وكرهوا الذم لأنهم خلقوا من طينه سوداء كالحة لا يستأنس بها ، فإذا تركت وشأنها كانت مجلبة للوحشة والنفور ، فعمدتم إلى الألفاظ وجعلتم لها من المعانى ماراقكم . فقلتم جميل وقبيح وطيب وخبيث وعفيف ودنىء ، وأعطيتم لكل كلمة معناها المفهوم منها . ولولا عملكم ذلك ما كان لكلمة قبيح أن تؤدى المعنى المرذول الذى اصطلحتم عليه وتقرر ذلك فى الأذهان عندكم وكذلك كلمة جميل ما كانت لتؤدى المعنى المحبوب لولا اصطلاحكم على ذلك . . أنتم معذورون فى اتخاذكم الأذهان والأصباغ لتستروا بها طينتكم الكالحة وليألف بعضكم بعضا . وما هذه الألفاظ ذات المعانى القائمة فى أخيلتكم إلا أدهان وأصباغ . أنتم فى أمس الحاجة إليها

لنفى الخبث . لا بل لستره . أما نحن معشر الأبالسة فلسنا فى حاجة إلى ذلك لأننا من نار والنار والخبث لا يجتمعان .

— ولكن رأيتك تتكلف الأدهان والأصباغ ولا تبدو للناس على حقيقتك وتلبس لهم لبوسا يحببك إليهم . فلماذا كل ذلك ؟

— نزولا على قاعدتكم لأنكم لم تألفوا مجابهة الحقائق وإذا جوبهتم بها ارتعتم واستولى عليكم الهلع ونكصتم على أعقابكم خائفين .

— دعنى من هذا أيها اللعين فما أتيتك لأستمع إلى تأنيبك واستصغارك لشأن بنى آدم فإن عداوتك لهم قديمة وخير ما عرف عنك أو هو شر ما عرفناك به أنك مغرم بالناس تود أن لو اجتمعوا حولك وأطاعوا أمرك واتبعوا تعاليمك . . وقد أتيتك باحثا عنك لأتلقى منك دروسا فإنك صحبت آدم وبنيه منذ القدم وعرفت نواحى الضعف فيهم فأجلبت عليهم بخيلك ورجلك من ناحيتها فإذا الناس بك يقتدون ولآثارك يقتفون . أما من صد عنك ولم يستمع إليك فما باء بغير الخمول وما رجع من دنياه بغير الغصة والحسرة والفشل المريع .

— وأين أنت من تعاليم الإنس ودروسهم ؟ فإن فيكم الفلاسفة وأهل الرأى .

— إن تعاليم الإنس ودروسهم لا تصلح أن تكون نبراسا

لرجل الحياة . لأن واقع الحياة فى جانب وتعاليمهم فى جانب اخر .

— هىء . . هىء . . هىء .

— مم تضحك ؟؟؟

— تذكرت أمك حواء حينما طلبت دروس الغواية منى واستعرضت أجيال البشر فلم أجد من أبنائها من يترسم خطاها ويبحث عنى غيرك . فأضحكنى ذلك .

— إذا فأنا ابنها بحق . .

— وماذا تريد؟ وأى التعاليم تصبو إليها نفسك؟ يا بن حواء بحق . .

— أريد من تعاليمك ما يجعلنى مثلك . أجتذب الناس إلى كاجتذابك لهم حتى يكون موقعى منهم كموقعك فى قلوبهم .

— إنك تعجز أن تكون مثلى . .

— ولم ؟

— لأنك من البشر .

— ولكنى رأيت أناسا من البشر صاروا صورة طبق الأصل لأعمالك ومخازيك فمن غير المتعذر أن ...

— نعم فمن غير المتعذر أن تكون مثلى . إذا أردت ذلك . هذا ما تريد أن تقوله ولكن . .

— ولكن ماذا ؟

— ولكن الذين صاروا مثلى من أبناء جلدتك تحرروا من كثير مما يتشبث به الناس .

— سأتحرر — مثلهم — إذا اقتضى الأمر .

— على أن يكون ظاهرك خلاف باطنك .

— على أن يكون ظاهرى كما تريده .

— إن للبشر ألفاظا وكلمات تحمل معانى مختلفة ، وما هى فى حقيقتها إلا مجردة عن كل معنى ، ولكن الوهم الذى منيت به البشرية ، جعل لهذه الألفاظ والكلمات معانى مقررة فى الأذهان ، يثورون على من يتنكر لها أو ينكرها .

— مثال ذلك .

— مثال ذلك الشرف ، النبل ، النزاهة ، العفة . فهذه وأشباهها كلمات لها فى أذهان الناس معانى يقام لها ويقعد . فأول شىء يجب أن تعلمه حقيقة هذه الكلمات ، فلا تقم لمعانيها وزنا فى نفسك .

— هذه فى مقدمات الحماقات التى كنت ألزم نفسى بها وأرجح أنها هى التى أساءت بينى وبين الناس .

— ترجح ، يجب أن تعتقد ذلك ، وفى الوقت نفسه يجب أن تتخذها أغنيات تترنم بها فى كل وقت وعند كل مناسبة ، على أن لا يكون نصيبها منك غير الجحود والنكران .

— دعنى من هذه البداءة .

— ظننتك ترتاع ، فإذا أنت تقول إنها من البداءة فمن أين لك ذلك ؟ وممن تعلمته ؟

— من واقع الحياة ، ومعاملة الناس .

— إذا فواقع الحياة أصبح قريبا مما أحب .

— لعله كما تحب أو هو فوق ما تحب . أو لم يأتك خبره .

— لم أعلم .

— كيف جهلت هذا ؟ وأنت المبتلى بنا وبصحبتنا .

— حدث فى مملكة الشياطين ما ألهانى عن التعرض للناس .

— أليس لك خبراء فينا ينبئونك عنا ؟

— إن لى سربا من الشياطين مبثوثا بينكم ، ولكن انقطعت عنى أخبارهم منذ أمد بعيد .

— كأنك سئمت صحبة الناس ، فلم تعد تهتم بهم كاهتمامك من قبل ؟

— إن الناس اليوم غيرهم بالأمس ، فلم تعد تنطلى عليهم خدع الشياطين ذات الأسلوب القديم ، وإنى معتكف فى تهيئة أساليب جديدة ، أستطيع بها بث تعاليمى بين الناس .

— إن تعاليمك مهما كانت أساليبها سوف لا تلبث أن ترمى بها حتى تجد القلوب متفتحة لها وستأتى أكلها خبيثا سهلا كما تحب فى أقصر وقت .

— دعنا من هذا . . وأخبرنى عما تريد أن تتعلمه منى الآن .

— أريد معرفة الأساليب التى أستطيع بها تنفيذ تعاليمك الشيطانية لأكون السابق فيها .

— أليس لك رغبة فى الزهد عن واقع الحياة ؟

— ومتى اتجهت رغبة الشياطين فى تزهيد الناس عن الحياة ؟

— زهدك فى الحياة وبعدك عن واقعها خير لك وأسلم ، فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، وإنى لك من الناصحين .

— تبا لك أيها اللعين ، متى أقمت نفسك واعظاً ونصوحا ؟

— إن الانصراف عن الحياة والزهد فيها أخف من ممارسة الواقع والانغماس فيه ، وربما كان فى نفسك نزوع خفى إلى الزهد والتنسك فأردت أن أنميه فيك قبل أن يرين على قلبك حب الحياة وزخرفها .

— قد أجد ذلك من نفسى بعض الأحيان ، ثم أثوب إلى رشدى فأقول : إن الزهد فى الحياة والابتعاد عن الناس ، دفن للإنسان وهو فى قيد الحياة ، ونفسى لا تسمح لى بذلك . وهى أكثر نزوعا إلى حب المجد والشهرة منها إلى الزهد ، ومع كل فما كان يخطر بنفسى أن الشيطان يدعو لذلك .

— إن الشيطان لا يزهد الناس فى الحياة ، وما كان له أن يدعو لذلك إلا إذا انقلب ملاكا فاطمأن .

— فلماذا التخابث إذا ؟

— أريد أن أستوثق منك .

— قد علمت دخيلة نفسى بما أبديته لك وأكرر القول لتثق جيدا أن نفسى تنزع إلى المجد وتتطلع إلى الشهرة والغنى .

— إن من أراد المجد وتطلع إلى الغنى والشهرة عليه أن

يتجرد من إنسانيته ، فهل تسمح نفسك بذلك ؟

— إذا تطلب الأمر فلا مانع .

— بخ . بخ . إن أبالستى لم يجدوا كلمة يغرون بها بنى آدم على التخلى من إنسانيتهم ، ومما تواضعوا عليه مما أسموه صفات سامية . كنا نذوق من جرائها الأمرين مثل هذه الكلمة : المجد ، وأختها : الشهرة وقد نجحوا ، وقال كالمخاطب نفسه : ما المجد ؟ ما الشهرة ؟ ما الغنى ؟ لا شىء . ولكن الإنسان له خيال عجيب ، ثم التفت إلى وقال :

— ما أرى نفســـك نزعت إلى المجد إلا بإغراء من إبليس المجد .

— أوللمجد إبليس ؟

— وسيكون عندى من علية الأباليس وكبرائهم ، وسيكون هو الموكل بمجانين المجد والشهرة من أمثالك .

— وهل إبليس المجد هذا متصل بمدد لعناتك (اللعنة فى عرف الأبالسة ، معناها التوجه والتشجيع) .

— إن لعنتى ستحفه من كل مكان ، وكذلك كل أولياتى سواء كانوا من الإنس أو من الأبالسة .

— أو لك أولياء من الإنس ؟

— أولئك الملعونون منكم يا بنى آدم الذين لا يفترون عن خدمتى ونشر تعاليمى و . .

— دعنى أيها اللعين من ملاعينك وملاعين بنى آدم ، وخذنى فى طريق الغواية ، وزودنى بضلالك المبين .

— هل نلت شيئا من المجد الذى تصبوا إليه نفسك ؟

— لا . ولامقدار ذرة .

— ولم ألم تعمل له ؟

— عملت وعملت ، ولكنى لم أبؤ بغير الحسرة والفشل ، لأنى ما أكاد أسير خطوة إلى الأمام ، حتى يرجعنى الحظ العاثر إلى الوراء خطوات .

— أظنك كنت تحاول أن تكون من ذوى المبادىء السامية وقيدت نفسك بالأخلاق الشريفة .

— هو ذاك . .

— إذا فلا تذهب بعيدا فى البحث عن أسباب فشلك .

— وكيف العمل ؟

— استأنف العمل . واترك تلك القيود والتكاليف فما الأخلاق السامية والمبادىء الشريفة إلا ألفاظا لا معانى لها . وما معانيها إلا القيود والأغلال التى تعوق الرجل عن نيل ما تصبو إليه نفسه وما حمل النفس على الاتسام بها إلا بلاهة وغباء ومجلبة للحظ العاثر .

— أليس عجيبا أن يكون الحظ العاثر الذى يعقبه الفشل من نصيب من يعامل الناس بأخلاق قويمة وعمل شريف ؟

— لا ليس هـــذا العجب . إنما العجب العجاب أن ينجح صاحب الأخلاق السامية فى الحياة . لأن صاحب الاستقامة والمتعلق بالمثل العليا أشبه ما يكون بالحالم أو الواهم والناس جبلوا على الاستهانة والاستخفاف بالواهمين الحالمين . وإنما هم يخشون أهل اليقظة ويحسبون ألف حساب لهم . والحالم لا يعنيه من يستخف به شعر أم لم يشعر ولا يجيب نفسه على النقمة ممن يسيء إليه . أما المتيقظ المتنبه فلا يغفل الانتقام ممن يستخف به .

— كأنك تريد أن تقول إن الانتقام ضرورى لرجل الواقع .

— ما أخطأت ما أقصد إليه .

— وما الحكمة فى ذلك ؟

— أوه . الحكمة ظاهرة لأن الانتقام نوع من أنواع القوة التى تكفيك شرور الناس ولؤمهم ومن لم يكن لديه شيء من القوة ركبه الناس .

— صحيح وسوف لا أغفر لأحد زلة .

— على أن لا يعرف عنك إلا أنك متسامح .

— وكيف يتسنى لى ذلك ؟

— إذا كنت بارعا فى تضليل الناس .

— هناك الأصدقاء والخلصاء الذين لا يمكن تضليلهم .

— رجل الواقع لا يؤمن بالصداقة . وإن كان يمنح كل من يتصل به لقب صديق .

— أعوذ بالله . هذا خداع .

— وهل فى الخداع مسبة .

— أليس فى الخداع مسبة ؟

— لا ولو كان فيه مسبة ما لجأت إليه أمك الطبيعة فهو أسلوبها فى كل ما تعمل فلولا خداع الطبيعة ما استطعت الحياة ولا طاب لك العيش . الطبيعة تغرى الرجل بجمال المرأة وتغرى المرأة بجمال الرجل . وأين هو ذلك الجمال ؟ انظر لأجمل امرأة من خلال (المجهر) تنفر منها . تتقزز من رؤيتها . لا تطيق قربها بله شمها وضمها . إنها مجموعة مواد قابلة للتعفن تحيط بها بشرة كلها خروق وشقوق سوائل لزجة تجرى هنا وهناك . وتلك هى المرأة . وكذلك هو أجمل الرجال . خداع لجأت إليه الطبيعة لغرض فى نفسها .

— بقاء النوع — كما يقولون —

— هو ذاك . فهل تراه مسبة ؟ ولولا الخداع ما كان لها ما تريد .

— عجيب .

— وأعجب منه أن كثيرا من الأوهام قام مقام الحقائق فى أذهان الناس فخاف من جهلها وفاز من لم يعبأ بها . قال الناس إن للظلم نكسة وأن بيت الظالم خراب . فتحرج الساذجون عن الظلم وحكموا على أنفسهم بالحرمان وعثار الجد . وما عسى أن تكون تلك النكسة ؟ غير الوهم يدب إلى عقول البسطاء والأغرار الواهمين فيتحاشون الظلم . وهل رأيت العمران إلا فى قصور الظالمين ؟

وهل رأيت الخراب إلا فى دور من يتقشفون ويتعشقون النزاهة ويستمسكون بالعدل ؟

وأشاد الناس بالصراحة ، وما الصراحة إلا التجنى على الناس ومجابهتهم بما يكرهون وهاهم أولاء الصرحاء لايحبهم الناس وينفرون منهم كما ينفر السليم من الأجرب . وعظم الناس الوفاء وهل معناه فى أذهانكم إلا أن تقف مكتوف اليدين والرجلين بدون ما سبب معقول غير التشبث بمعنى من معانى الوهم فى العقول والأفكار . إن الناس جهلوا حقيقة أنفسهم فقوموها بأكثر مما تستحق ولو علموا الحقيقة لأحسنوا تقويمها . ما الإنسان ؟ إن هو إلا ضحكة من ضحكات الوجود العابث فهو ليس من نور محض كالملائكة حتى يلزم نفسه بصفات الأبرار وليس هو من نار محض كالشياطين وإنما هو مزيج من هذا وذلك مضافا إليه الطين وتلك خلطة من المتناقضات صار بها أعجوبة الكون وضحكة الوجود وألعوبة القدر وضعته الحياة على مسرحها لترفيه الكائنات . إن هو إلا ممثل له أن يلبس شتى الأزياء ويتلون بمختلف الأصباغ ويقوم بالأدوار التى تسند إليه على اختلافها دون أن يعتقد حقائقها . أرأيت لو أن ممثلا قام بدور الملك ثم اعتقد أنه فى حقيقة أمره ملك يجب أن يطاع أمره ويقبل حكمه فماذا يحكم عليه النظارة ؟

— لا شك أنهم يحكمون عليه بالجنون ويسوقونه من فوق خشبة المسرح إلى مستشفى المجاذيب .

— أما من أتقن دوره فى التمثيل معترفا بحقيقة أمره

— يستحق الثناء ويفوز بتقدير الناس .

— وكذلك أنتم فما حياتكم إلا رواية وما أرضكم إلا المسرح وما أنتم إلا الممثلون . فإذا أردت أن تكون من أبطال هذه الرواية الضخمة والبارزين على المسرح فالبس لكل دور لبوسه وكن كالممثل البارع الذى يحسن استعمال « المكياج » فيثير إعجاب الناس به ثم هو لم يزد على كونه ممثلا أتقن فن التمثيل وأجاد فى أداء الدور الذى أسند إليه .

اسكب دموع الأسى والأسف على انتهاك الحرمات وشيوع المنكرات إذا اقتضاك الأمر — فى الوقت الذى لا تتحرج عن إتيانها إذا كان نجح مسعاك متوقفا على ذلك . ولا يروعنك حرص أحرص الناس على تقاليدهم ونقمتهم على من خرج عن مألوفهم فإن من أهون الأمور حمل أحرص الحرصاء على نبذ المألوف والتنكر له إذا ضمنت له نفعا مؤجلا من جاه أو ثروة أو نفوذ . تمدح بالصدق ولا تتحرج عن الكذب إن كان فيه نجاح . ابحث عن سقطات الناس وتتبع عوراتهم فإن ذلك هو المقود الوحيد الذى إذا شددت عليه تركت الناس كالرابط لديك فلا يخامرهم التنكر لك وإن خامرهم تذكروا هذا المقود الذى تقبض عليه فيستكينون، ومن لم تكن له سقطة فأحر بك أن تمهد له طريقها حتى يقع فيها لتنكسر أجفانه إذا نظرت إليه . إن فى الناس الضعفاء وأهل المسكنة

والفاقة . فكن كالأسد قوة عليهم وبطشا بهم واجعل من مالك ثمناً لضمائرهم وسخرهم لأغراضك على أن يكون ماتسديه لهم مسجفا بسجاف العطف والمواساة فإن هذه الفئة لا تلبث إن تنسمت نسيم الاستغناء عمن أحسن إليها حتى تركله بأقدامها وما أسرع ما تتنكر له .

تودد إلى الأغرار والطائشين ثم اقذف بهم فى وجوه خصومك واجعلهم ضحايا على مذبح شهواتك على أن تكون السكين التى تذبحهم بها مغلفة بغلاف من ذهب .

ولا تضق ذرعا بصحبة البله والأغبياء فهؤلاء لا يكلفونك إلا أن تدخل فى روعهم بأنهم أذكى الأذكياء فيكونون لك خدما بغير أجر وينفعونك فى حمل الأثقال لأن هؤلاء — عادة — يأتون أقوياء البنية .

— إن الناس لا يثقون بمن هذه أعماله .

— ومتى وثق الناس بمن يتحاشى هذه الأعمال ؟ ؟

— صحيح — إن الثقة أصبحت لا محل لها بين الناس ولكن لا يستطيع صاحب هذه الأخلاق أو غيرها أن يتألف الناس إلا إذا كان له بجانب ذلك بقية من مال .

— له فى أموال الأغنياء مايضمن ما يحتاج إليه من الإنفاق لتألف الناس .

— إن الأغنياء ليسوا من الغباء بالدرجة التى يستطيع بها

الإنسان أن يصل إلى أموالهم . فهم قد احتفظوا بها فى الخزائن وجعلوا مفاتيحها الحرص والشح والغلظة والقسوة التى لا تنفع فيها سطوة اللصوص ولا تؤثر فيها دموع الاستعطاف .

— ومتى كانت دموع الاستعطاف وسيلة لاستنفاد ما فى الجيوب والخزائن ؟ الدموع لا يلجأ إليها إلا عديمو الحيلة والمستضعفون من الناس ، والسرقة المكشوفة لا يلجأ إليها إلا أهل الرعونة والجهل .

وما رأيت وسيلة أنجح فى استنفاد المال من الأيدى مثل التخابث والدهاء . تودد إلى الأغنياء ولا يضق صدرك بغرورهم وتعاظمهم ، تعرض لقضاء حوائجهم وتطوع لخدمتهم وأد ذلك بصورة ترضيهم عنك وتحملهم على الثقة بك فإذا سنحت لك الفرصة للانتهاب فانتهزها ولكن ليس على طريقة اللصوص بل بطريقة تشعرهم بأن ما تأخذه منهم لا ينفق إلا لنفعهم كدرء خطر داهم أو رد عدو مهاجم أو قضاء مأرب من المآرب التى ترخص دونها بدر الأموال ، ثم لك المنة والتفضل عليهم لأن أموالهم ما كانت لتنفعهم لو لم تجد رجلا مثلك يحسن التصرف فيها ويضع الأشياء مواضعها .

فإذا مشت إليك الثروة وستمشى إليك إذا عملت بما أقول وصرت من رجال المال فلا تبعد عنك أهل الجشع والدناءة ولا تحذرهم كما يحذرهم أغبياء الأثرياء ، فإنك ربما كنت أحوج

ما تكون إليهم فإن هؤلاء لا يخلون من ثروة . فإذا عاملتهم بخبث لا تلبث أن يغلب جشعك المغطى على جشعهم المكشوف وكان ربحك منهم أعظم من ربحهم منك وإذا أردت أن تنتفع بما لك وثرائك فعليك بالذين يظهرون التعفف فى أموال الناس من العلماء وأهل الوجاهة فتودد إلى الصنف الأول بطلب الدعوات وتقبيل الأيدى وصب الماء عليها إذا قاموا للصلاة وإذا فرغوا من الطعام . وإلى الصنف الآخر بالتحدث عن مناقبهم ومكارم أخلاقهم — ولو لم يكن لهم من ذلك شيء — واستعن فى جلب هؤلاء وهؤلاء إليك بالترياق النافع الذى يقال له الرشوة ولتكن رشوتك فى قالب يستمرئه العلماء وتهش له نفوس الوجهاء ولا تكن راشيا يقدم رشوته على ملأ من الناس ، أو تكون رشوته مكشوفة فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن بحث عن حتفه بظلفه ، ولك فى الولائم والهدايا عند مناسباتها متسع .

... وكأن الملعون حمى للكلام فراح فى حموته هذه يلقى على محاضرة طويلة عريضة واستمر يقول :

— فإنك إن أتقنت تمثيل هذا النوع من أنواع التودد أحبك العلماء ورغب فيك الوجهاء وانخدع بك الجمهور وخشى من نفوذك الأغبياء وتزلف إليك ذوو الحوائج ، وحينئذ يجب أن تحكم لعبتك لاسترداد ما بذلته فلا تساعد أحدا بجهدك ووساطتك إلا إذا ساومته مساومة ترضيك ، وكن كالحرباء المتلونة ، مداجاة للقوى

ومداجاة أكثر للأقوى ، وأمت ضميرك موتا لا تؤثر فيه دموع الاستعطاف إذا لم تكن مشوبة بالذهب الرنان . واعمل بقول الشاعر الذى وسوسنا له بصوغ هذه الأبيات :

ودع غرامك بالأخلاق وامش معى
مشى المجد لنيل الجاه والذهب
وإد ضميرك حتى لا يعوقك عن
فعل القبيح وقول الماذق الذرب
واظهر بمظهر من عفت سريرته
وكن دنيئا وحاذر أن تكون أبى
فما التعفف مجد فى الحياة وما
فضل الإباء سوى التوجيه للعطب

... وليكن كلامك كله إغراء ومنطقك كله خلابا ، وادرس خلائق الناس حتى تعلم مواقع الثورة فيها فإذا بدا لك أن تثيرها فأثرها عنيفة متأججة كما يثير القائد فى جنوده عواطف الإقدام والحمية لا لشىء إلا ليصعد إلى قمة المجد فوق أجسادهم الصريعة ، فإذا استحكم لك الأمر فأدر وجهك حيث شئت ثم دس أغراضك ومراميك فيها فلا تلبث أن تقضى حوائجك دون أن يشعر الناس بأنك إنما سخرتهم لنفعك . ولا تتحرج أن تغرر بالناس فى كل شىء ، عد إذا كان فى الوعد نجح ، ولا تف إذا كان فى الوفاء تكليف ، وعاهد إذا خفت ، وانكث إذا أمنت ، وإذا رأيت عتبا أو عذلا فاعز قصورك للظروف المعاكسة ووقوف العقبات

وعزز ذلك بالأيمان الفاجرة والأقسام الكاذبة فلا يلبث أن يرتد العاتب ويفيء العاذل ويلتمس لك هذا أو ذاك الأعذار ، وقهقه مع الظالمين وابك مع المظلومين فإني أحب أن يكون :

(النـــاس خداع إلى جانب خداع)
(يعيشون مع الذئب ويبكون مع الراعى)

وتفاءل مع المتفائلين وزف لهم البشرى المكذوبة وقرب لهم بقولك الأمانى المعسولة وتشائم مع المتشائمين ، إذا استطعت أن تجعل بكلامك بياض النهار سوادا وضحك الأزاهير بكاء فافعل .. ليرضى عنك هؤلاء وهؤلاء ثم دع أولئك بالسراب يهيمون وهؤلاء فى الظلمة يتيهون .

وإن كانت لك عند أحد حاجة فادأب ولح فما فاز غير الدؤوب الملحاح .

— ولكنى أرى الناس ينفرون ممن أغثاهم بإلحاحه .

— ولكن من عود نفسه احتمال المداراة مما يقابل به لا يلبث أن تقضى حاجته لأن السؤوم يسرع بقضاء الحاجة خلوصا بنفسه من الحديث المعاد والطلعة اللحاحة .

— أو تريد أن أكون من الثقل على الناس بحيث يحبون أن يتخلصوا منى بأى طريقة ؟

— وماذا يضيرك من خلاصهم منك إذا خلصت إلى غايتك بواسطتهم ؟

— إن ذلك يضطرنى ليس إلى الاحتمال فقط بل وإلى الملق .

— وهل فى الملق ضير ؟

— وهل شىء أشد من الملق على النفس الكريمة ؟

— ها ها . النفس الكريمة . إن الملق — يا صاح — ثروة حرم منها ذوو النفوس الكريمة على حد تعبيرك أما أنا فما أرى إلا أن ذوى الأفكار الرعناء وعديمى الخبرة بالحياة هم الذين حرموا أنفسهم من هذه الثروة التى لا بد منها لرجل الحياة . أولئك الذين دللوا على أنفسهم بأن الحيوان الأعجم أطبع منهم على الحياة وأعرف بطبائع أهلها ، إنك إن تملقت ذوى الوجاهة قيل عنك إنك دمث الأخلاق كريم المنبت ، وإن تملقت الجماهير نعتوك بالتواضع ولين الجانب . وما استغل جهود الناس وأتعابهم بغير ثمن فى مصالحه مثل المتملقين . وما رأيت مرقاة يصعد بها الإنسان على أكتاف الناس مثل الملق . الملق . إنه لحن شجى من أحسن توقيعه هبط بالناس إلى ما يريد وصعد هو إلى حيث يشاء .

انظر إلى القطة تنعم بعطف الرجال وحنو الغانيات وتنام على الفرش الوثيرة . لم لم ينل حيوان من الحيوانات الأليفة ما نالته هى من الناس ؟ تملقتهم فظفرت منهم بكل ما ترى وهى أقل نفعا من المعزة . ولكن المعزة لم تتملق فكان مكانها الحظيرة .

— إنه ليشق على نفسى أن أكون متملقا .

— وأشق منه أن لا تكون كذلك .

... وما كاد اللعين يطلق كلمته من فيه حتى اختفى وتركنى . . وذهبت كلماته تجلجل فى أرجاء الحياة وتدوى فى مسمع الأحياء . .

من بين الأكواخ

فى هجعة الناس وسكون الحركة ، فى ليالى الصيف المقمرة تبدو مكة من أبى قبيس كالغادة المتعبة تمتد بين سفوح الجبال . وتستند على الروابى وتتعلق بالقمم وقد اتخذت من أضواء القمر الهادئة ملاءة رقيقة شفافة تلتف بها .

أما الآهات الممطوطة التى تتردد أصداؤها فتلك آهات المتبتلين حول الكعبة ، والأصوات الخافتة التى تبدو تارة وتختفى أخرى فإنما هى مكة الغارقة فى أحلامها ، المهومة فى هجوعها ، الساكنة فى مضاجعها .

فى تلك الساعة من ساعات الليل الساجى كنت أتجول فى شعب من شعاب مكة فإذا بصوت ينبعث من أحد الأكواخ تشوبه رنة حزينة ، أغرتنى نبراته الواهنة التى تبدد سكون الليل على الإنصات إليه . فإذا به يقول كلاما كأنه الشعر المرسل .

أماه ، ما لحياك الجميل قد غزته الغضون ؟ ؟ ؟

وما لجبينك المشرق قد حومت عليه الصفرة ؟

وما لجسمك قد أسرع إليه الهزال . . . ؟

إنى حينما أنظر إليك وأرى هذه الأعراض تأخذنى الرجفة ويستولى على الفزع ، وتفيض عيناى بالدمع السخين ! ! !

لأنى أجد فى هذه العلامات نذير السوء ، وحادى الفرقة ، وداعية الحزن والانكسار .

إنى أحس بنياط قلبى يتقطع وبمهجتى تتمزق ، وبين جوانحى شعلة من نار الجحيم ، كلما فكرت فى أنك ما استعضت شيئا مما فقدته على من مال وما بذلته من جهد وما قاسيت من عناء ، حتى رأيت اليوم الذى كنت تودين أن ترينى فيه رجلا أملك أمر نفسى لتودعى أتعاب الحياة وتعتمدى على فيها ، فإذا أنا لا أملك أمر إسعادك ولا أستطيع الترفيه عنك .

ولا أملك أن أزيل شيئا مما أنت فيه من بؤس وشقاء .

أماه . يعز على — وأيم الله — أن أرى هذا الجسم الذى أتعبه سهر الليل ، وأضوته متاعب النهار ، وأنهكته جهود التربية ، وهذا القلب الذى ينبجس على بالعطف والرحمة والحنان ، كما تنبجس العيون بالماء العذب الزلال دون ما نضوب أو كلال ، تدب إليهما بواكير الشيخوخة ، وتتوافد عليها نذر الفناء ، ولم يكن لى من القدرة ما يجعلنى أفى بما على من حقوق وواجبات . فيمتلىء قلبى أسفا .

فإذا قلت لك : أنا آسف يا أماه ، فإنما أعبر بهذه الكلمة عن أسف ممض يحز فى قلبى كما تحز المدى المثلومة فى جسوم الأحياء .

وكيف لا آسف وأنا أرى حالتك هذه . وأرى نفسى قد بلغت السن التى كنت ترجين أن أبلغها ، فإذا بلوغى لها لم يجدك

نفعا ولم يحط عنك عبئا ، ولم يخفف عنك حملا ، أنا آسف يا أماه ، وإن للأسف الصادق آلاما تتضاءل دونها الآلام العاتيات ، وإن ما بى من ألم الأسف ما لا يستطيع أن يصوره بيان ، أو يكيفه تعبير ، أو يجلوه قلم مهما كان قويا بليغا .

إن أسفى يا أماه لذعة من لذعات الجحيم تعيث فى كيانى كما تعيث النار فى الهشيم . ولعل هذه الدموع التى تذرفها عيناى مدرارا أبين شىء على مبلغ إحساسى بالأسف . وهى إن دلت على شىء فكما يدل الماء المتقطر من الشواء على شدة ما تحته من وهج النار ولهيب الجمر .

* * *

ما أقسى الحياة عليك يا أماه . قست عليك وأنت طفلة فحرمتك من أبيك الرحيم ، وقست عليك وأنت شابة فاختطفت قرينك منك وهو فى شرخ الشباب ، وها هى ذى تقسو عليك وأنت فى سن الاكتهال . وما أجدرك بالشفقة ، وأنت فى هذه السن . فما أنت للقسوة بأهل . وما أنت إلا الخليقة بأن يبسم لك الزمن . وترقص بين يديك مواكب الأفراح . كما كانت لجموع الأتراح حولك عجيج وصفير .

لقد قست عليك الحياة وأنت طفلة فحرمتك من أبيك الرحيم ، ثم قست عليك وأنت فى نضرة الشباب فاختطفت المنية من بين يديك شريك حياتك فاحتملت مرارة الترمل ، ونار

الفراق ، وعناء العناية بأطفالك الصغار ، فى جلد عجيب يستحق الإجلال والإكبار .

ثم قست عليك حينما امتدت يد المنون القاسية إلى طفلتك واختطفتها منك وأذاقتك كأس الثكل وحميمه . وأشعلت فى قلبك جذوة مااستطعت إطفاءها بما ذرفت عيناك من دمع غزير .

حكيت لى كل ذلك — يا أماه — فانطبع فى قلبى ، ولقد صممت أن أمحو آثار الحزن من قلبك حينما أبلغ مبلغ الرجال .

وكذلك ذقت — يا أماه — من الصروف ألوانا فصبرت واحتسبت وتعزيت عن كل ذلك بطفليك الصغيرين ... ورأيت فيهما سلوتك الوحيدة ، وعزاءك المختار .

وأشحت عن الأهل ، وجافيت المعارف ، لتقصرى همك على تنشئتهما النشأة الصالحة التى رجوت أن تأتى أكلها .

فلما كبرا قعد بهما الحظ فلم يحققا ما كنت تأملين تحقيقه ، وعاداهما الزمن فلم يصلا إلى ما كنت تودين لهما من يسر ورخاء .

كل مالا قيته — يا أماه — من عناء ، وما كان يداعبك من أحلام وإن تبدد مع ما تبدد مما كان لك من ثروة وشباب ، مسطور فى صفحة ذاكرتى ... فأنا لا أنفك أتلوه كلما ذر قرن الشمس ، وكلما غام علينا الظلام .

فإذا ما رأيتنى يا أماه :

أصمت فلا أتكلم

وأدعى فلا أجيب .

وأخاطب فلا أرد .

فإنما يستولى على وجوم لا أطيق رده ، وأخوض فى بحر من الهموم عات موجه، لما تطالعنى به تلك الصحيفة التى ما يفتأ فكرى يستعرضها . وكما هى مصدر صمتى ووجومى ، فهى كذلك تذكى فى قلبى عوامل الأسف والحسرة على ما منيت به من أمل ضائع ، ورجاء خائب ، وأمنية لم تتحقق بعد صبر كصبر الأبطال . ويزيد فى آلامى : إذا ما رأيتك والوهن يتسرب إليك ، والهزال ينتابك ، والمرض يهجم عليك بمثل هذه السرعة والقسوة . وتدركنى الخشية والرعب مما عسى أن تكون عاقبة ذلك .

إن ذلك يزعجنى وأحس كأن قلبى يثب من مكانه .

وتتوارد على ذهنى خواطر سود وأرى الدنيا على سعتها تضيق بى حتى لا أراها إلا كسم الخياط .

أماه !

أنا لا أطيق الحياة

ولا الصبر على الحياة إن غبت عن الحياة

وما قيمة الحياة إذا لم يحدنى فيها أمل ؟

وهل أملى فى الحياة سوى القدرة على أن أنيلك أمنيتك ؟

وأحقق لك رجاءك ؟

حتى أراك تنعمين بثمار جهدك

وعاقبة صبرك .

وإنى إذا افتقدتك — لا سمح الله — أفتقد كل أمالى فى الحياة بجانب ما سأفقده من عطف الأمومة وحنـــانها ، وبر الأم الرؤوم وعنايتها .

إن أسعد أيامى اليوم الذى أراك فيه قريرة العين ، راضية النفس ، مثلوجة الفؤاد ، بنوا لك ماتتوق إليه نفسك الطاهرة النقية .

وهل تاقت نفسك إلى غير أعمال البر والإحسان التى تودين تقديمها بين يديك قربى إلى الله ، وزلفى منك إليه .

تلك الأعمال التى طالما حدثتنا عنها ، وقلت لنا إنها أمنيتك الوحيدة التى تودين تحقيقها قبل الموت .

ذلك اليوم الذى يمكنك فيه أن تمدى يديك للمعوزين ، وتدخلى الفرحة على قلوب المنكوبين . ذلك اليوم الذى يتحقق فيه حلمك الجميل هو اليوم الذى أسعى وأكدح من أجله ، وهو اليوم الذى يتعلق به أملى وترقبه نفسى ، ولن أنى عن تحقيقه سعيا . فعيشى يا أماه حتى يتحقق !

* * *

ثم تلى هذه المناجاة مايشبه الابتهال . أو هو الابتهال بعينه ... فأسمعه فى صوت متهدج يرن فى سكون الليل فيبدد وحشته :

« رباه أن هذه الأم الرؤوم على بنيها ، والمرأة الوفية التى رعت حقوق زوجها فحافظت على عهده .

وآلت على نفسها عدم الركون إلى غيره .

والتى لم تدنس برجس .
ولم يعلق بذيلها درن .
ولم ترم بقالة سوء قط .
والتى لم تلجأ فى شدتها إلا إليك .
ولا تعتمد فى كل أمورها إلا عليك .
فى أمس الحاجة إلى عنايتك وعطفك .
وإحسانك ومنك .
فأرها اليوم الذى تسعد فيه .
وهب لها من العمر ما يجعلها تجنى ثمار ما زرعت .
وتنعم بما رجت وأملت
ليمتلىء قلبها غبطة .
ويثلج صدرها ببلوغ الأمل .
قبل أن توفى على اليوم الذى يدركها فيه الأجل » .

وأعقب هذه الكلمات آهة طويلة يظن سامعها أن صدر قائلها ينخلع منها . وتلت هذه الآهة المروعة سكتة طويلة . . ينبعث بعدها صوت ضعيف . . فإذا أرهفت سمعك تبينت فيه قولا يكاد يذوب حنانا ورقة .

« أى بنى أنا لا أريد منك أن تكون كما أرى رقيق القلب . حاد الإحساس . شديد التأثر ... فإنك بذلك لا تستطيع احتمال ما ستلقيه عليك الحياة من أعباء . وإنك إن تكن كذلك سوف لا تجد القدرة على العمل بله تلقى الصدمات .

ولكنى أريدك جلداً قويا تتقبل كل ما تطالعك به الحياة

فى طمأنينة وهدوء وثبات . فقو قلبك ولا تتأثر كل هذا التأثر بما تراه على من أعراض الهزال . فإنما هى أعراض لا تلبث أن تزول . وكل الناس عرضة لأمثالها .

ومن ذا الذى فى الأحياء عاش عمره صحيحاً لم يعلق به مرض ولم يعره شىء من الهزال ؟

أو لم تكن مريضا منذ أيام ؟

وها أنت ولله الحمد طبت وعوفيت . وكذلك أنا . سأصح وأطيب . وستعود إلى نضرتى وقوتى بإذن الله . . وإلا فما نحن إلا عبيد الله وإماؤه . وما علينا إلا الرضا بحكم القدر . فلنتذرع بالصبر على البلاء . . إذا مسنا البلاء . ولنشكره ونثن على آلائه إذا أصابتنا النعماء .

وما من أحد إلا ويوفى نصيبه ، وينال حظه ، فإن الله لايضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى . وسيوفى الناس أجورهم — إن عاجلا أو آجلا — وقد أعد الله للصابرين والشاكرين ثوابا جزيلا ، وخيراً كثيراً . وما متاع الدنيا إلا قليل . فلا يؤلمنك ما تراه بنا من بؤس فربما كنا أسعد حالا من غيرنا . ثم نحن فى غفلة عما تخبئه الأقدار لنا ، وربما كانت السعادة منا على قاب قوسين أو أدنى . فلا تقلق ولا تتعجل أمر الله .

وكأنها كانت تتحدث إلى ابنها وهى تصعد متحاملة عليه إلى سطح الكوخ . فما زال الصوت يبتعد رويداً رويداً حتى ذاب . كما ذاب ظلام الليل تحت أشعة الصباح ؟

المطلقـــة

كانوا ثلاثة أصدقاء لا يكاد يفترق بعضهم عن بعض ، وقد اتخذوا لهم نديا فى سفح جبل خارج مكة حيث الخلاء المنبسط . والهواء الطلق والهدوء الشامل .

فكانوا يأوون إليه فى أمسية كل يوم فيمكثون فيه إلى هزيع من الليل . . يخوضون فى شتى الأحاديث مستمتعين برؤية القمر إذا طلع . والنجم إذا سطع : يرسلون الطرف إلى أبعد حدود . فيهيم بجمال الكائنات . ولا يرتد إليهم إلا بعد أن يشيع فى نفوسهم البهجة . ويضفى عليهم حلة فضفاضة من السرور تطوى فى ثناياه ما تحمله قلوبهم من مكاره الحياة وأوضارها .

* * *

وفى بعض الأحايين كان يغريهم منظر الجبال وهى تلتمع بأشعة القمر الهادئة على الصعود إلى قممها التى تبدو كأنها أكوام من نور تحت غلالة سوداء رهيفة .

فيصعدون إليها ويشرفون منها على تلك الروعة وذلك الجلال البادين فى منظر الجبال والتلال المنسابة فى الخلاء انسياب الجيوش الجرارة فى نظام محكم وثبات راسخ .

وربما راقهم الجلوس على القمة فيمكثون حتى تأخذ نفوسهم

حظها من السمر اللذيذ الممتع ، ثم يؤوبون إلى دورهم فى غبطة وانشراح .

* * *

وفى أمسية من تلك الأمسيات اللذيذة كان حديثهم يدور حول جمود الإنسان ومكره . . فقال أحدهم : لقد جرنى الحديث « والحديث ذو شجون » — كما يقولون — إلى تذكر قصة وسأقصها عليكم بالمناسبة .

* * *

« كان لى صاحب توثقت عرى الصداقة بيننا ، وكان يمتاز بالصدق فى قوله والإخلاص فى عمله ، وكان جزاؤه على ذلك أن بسط الله له فى الرزق ، حتى أثرى وابتنى له دارا أنيقة ، وتزوج بفتاة من عائلة عريقة ، كانت مثال الجمال والأناقة . . . والطهر والعفة والحياء والحشمة ، وسرعان ما رزقه الله بطفلة منها ، تقطر الحلاوة من بسمتها ، ويشيع الأنس من طلعتها .

فملأت بيته مسرة ، ونفسه بهجة وغبطة . واعتنى بتربيتها ، فشبت كأحسن ما تكون الفتيات أدبا وحياء . . وحسنا ورواء .

وتعجل أبوها تزويجها ، فاختار لها شابا رضيه لمصاهرته وزفها إليه . . .

وإذا سألته لم تعجل زفافها ؟ أجابك تأمينا لمستقبلها ، وحبا فى الطمأنينة عليها .

ولم تكد تبدو علامات الرضا والغبطة فى وجه ذلك الأب المشفق على ابنته ، حتى استحالت إلى علامات أسى وحسرة ، لأن الزوج المختار طلق زوجته تحت تأثير حدة اعترته وسورة غضب تملكته . . .

وويل للمرأة من الرجل . . . يلفظ الطلاق فى يسر وسهولة ويفىء إلى متكئه فيستلقى عليه آمنا مطمئنا مغضيا عما سيئول إليه طلاق المرأة من أمور ينهل لها الدمع من العيون أسى وإشفاقا .

إن فم الرجل إذا تحرك بكلمة الطلاق لا يكون فم رجل وإنما يستحيل إلى شىء آخر ربما كان فوهة مدفع . . وما فوهة المدفع يندلع منها اللهب . . بأهول من فم الرجل تندلع منه كلمة الطلاق . كلتاهما فوهتان ما صوبتا إلى شىء إلا هدمتاه . إلا أن أخراهما أهول من الأولى . فتلك لهدم الحصون والقلاع . وهذه لهدم الأسر والقلوب .

* * *

وقع الطلاق على الفتاة كما تقع الصاعقة على غصن أملد ، وكان وقعه على أبويها أشد وقعا وأكثر إيلاما .

فمنيت الفتاة بأمراض هدت كيانها . . وفيما هى تعانى آثار الكارثة ، وتردد آهات الألم ، فتتردد أصداؤها فى جوانب الدار فوجئت بأصوات أشد . . ابتلعت أصوات أنينها وأخفتته ، تلك هى أصوات من بالدار تنعى موت أبيها . . . بسكتة قلبية لم تمهله

حتى لتوديعها ، وإلقاء نظرة أخيرة عليها . . . وساد البيت رهبة وأصيبت نفس أمها بوحشة شديدة ، وحزن عميق ، ولكنها تجلدت ، وأمعنت فى إخفاء ذلك شفقة بابنتها ، فلقد كان عزاؤها أن تبقى لابنتها وتبقى ابنتها لها ، ولكن من أين للجلد قوة على مقاومة الأحزان المكبوتة والكمد العميق ؟ . فلقد تصدع قلبها وهجم الموت عليها وهى قائمة بتمريض وحيدتها . . .

* * *

كان لهذه الأسرة أقرباء وكانوا يمنون أنفسهم بالثروة التى ستؤول إليهم بعد وفاة قريبتهم . فأحاطوا بها مظهرين العطف والشفقة عليها . . ومسرين حماية الثروة من عبث العابثين لتصل إليهم كاملة . وأبت مشيئة الله أن يتحطم ذلك الغصن الذاوى وسرت فيه الحياة كما يسرى الرى إلى الأغصان فى زمن الربيع . وزهاها الشباب والصحة . فعادت كالزهرة المتفتحة والغصن النضير .

وكان ذلك مفاجأة غير سارة للمحيطين بها . فراحوا يتهامسون مرتاعين : أين شبح الموت الذى كان يظلها ؟ لقد انقشع عنها . كأن الله يريد حرماننا من الرفاهية التى كنا نمنى بها أنفسنا . ما الذى أعاد إليها الصحة ؟

لقد كانت خيالا مسجى . وهيكلا عظميا لا يتحرك فيه غير النفس . كيف دبت إليها الحياة ؟ وكيف مشى فى شرايينها الدم

الفوار بعد النضوب والهزال ؟ وكيف استحالت صفرة الموت إلى حياة مونقة ؟ لعلها صحوة الموت الأخيرة . لعله اشتعال الذبالة عند الإنطفاء . من يدرى ؟ لعل وعسى : هذا ما كانوا يتهامسون به إذا ما اختلى بعضهم إلى بعض .. ولكن الذبالة لم تنطفىء ، والغصن لم يذو . وبعد شبح الموت حتى أصبح ميئوسا من عودته . .

وتحطمت الآمال الطوال العراض التى كانت تملأ صدورهم . ولم يعد لهم إلا التفكير فى العودة من حيث أتوا . ولكن العودة بخفى حنين قاسية والأمل إذا امتد بالإنسان إلى شىء وأدنته منه الظنون يعز عليه أن يفاجأ بالخيبة . فيعمد إلى استفراغ كل ما لديه من حيلة لعله يدنو مما يرجو ويؤمل .

* * *

ولقد عز على أقرباء هذه الفتاة أن يخيبوا فى آمالهم بهذه الصورة التى لم تكن لتخطر على بال . فعمدوا إلى الحيلة . وراحوا ينفثون فى أذنها عبارات الحب والشفقة والإطراء . وإظهار الخوف عليها فيما لو تركت منفردة فى دارها . فكانوا يقولون لها : أنت عزيزة علينا . إنك لا تعلمين مالك من المنزلة الرفيعة فى قلوبنا . ولقد انحدر حبك إلى قلوبنا من حبنا الشديد لأبيك ، فلقد كان عليه الرحمة حنونا علينا عطوفا لنا . رحيما بنا . وكنا لا نعمل عملا إلا برأيه . ولا نصدر إلا بمشورته . وكانت كلمته نافذة . ومنزلته عندنا عزيزة . ولقد آن لنا أن نرد إليك جميل

أبيك وصنيعه الطيب معنا ، وإن فرحتنا بشفائك لا تقدر . وإن جلوسك وحدك فى دارك يسبب لنا قلقا كما يسبب قالة السوء عنك وحاشاك من الأسواء ولكن ألسنة الناس ليس عليها رقيب . ثم لا تنسى أننا بعد ائتلافنا بك أيام تمريضك ، لا نطيق فراقك ولا نستطيع الصبر عنك لحظة . وابتعادنا عنك يثير علينا المقت من الأجانب . والعتب من الحبايب والقرايب . وأنت لا ترضين المقت ولا العتب تنهال بها علينا ألسنة الناس . فهيا معنا إلى دارنا وعيشى معنا تؤانسينا ونؤانسك . وراحوا يضربون لها على هذه النغمة . وينفثون لها مثل هذا القول صباحا ومساء . حتى كان لهم ما أرادوا .. وانتقلت بقضها وقضيضها . وطارفها وتليدها إلى دار الأقرباء المشفقين لتكون فى الحرز المكين .

* * *

ولكنها ما لبثت أن أحست بأنها فى سجن . فالنساء لا يثنين عن إزعاجها بالمشاحنات النسوية الممقوتة ، والرجال ما فتئوا دائبين على استصفاء ما بيدها من ثروة . ولقد كانت المسكينة لا تملك لهذه القوى التى تضافرت عليها رداً . فكانت فى الأولى من الصابرات المحتسبات وفى الثانية من الملبيات المجيبات . وكانوا فى غضون كل ذلك يردون كل من تقدم لخطبتها . شحا بعزيزتهم . وتغاليا بقريبتهم . إذ هم لا يحتملون بعدها ولا يطيقون فراقها — كما يزعمون — حتى إذا لم يبق من ثروتها ما يدعوهم للتشبث بها ،

زفوها لأول خاطب، معللين ذلك بالخوف من الله فى احتجازها أما الدار التى هى كل ما بقى لها فليؤجل اختلاسها منها إلى فرصة أخرى.

* * *

ما كاد يستقر بها المقام فى منزل زوجها حتى تكشف لها بؤسه وفاقته فرق له قلبها. وللمرأة شعور غريب نحو زوجها إذا سكنت إليه يدعها لا تبالى بالتضحية فى سبيل إسعاده. ولا يجد الملل إلى قلب المرأة من الرجل بالسرعة التى يجدها إلى قلب الرجل من المرأة مهما كان حبه لها طاغيا عنيفا وما وفاء المرأة إلا من نبع ذلك الشعور.

ولقد أرادت فتاتنا أن تنسى رجلها أيام الشقاء والبؤس. وتحيل حياته نعيما. وعيشه مرفها. فلقد سكنت إليه سكون الظليم فى كهفه..

ووجدت فى عشها الجديد مملكتها الوحيدة التى إن ثبتت قواعدها ضمنت لنفسها فيها الهدوء والاستقرار بعد ما كانت فى محن أخذ بعضها بخناق بعض فلتضع حداً لمعارك الحوادث حولها. وليكن هذا الرجل رجلها إلى الأبد. وليكن عشها الفردوس الدائم. ولتعمل لذلك ما وسعها العمل..

* * *

وقام زوجها فى صبيحة يوم. فإذا هى تستقبله بابتسامة مشرقة. وتمد له يدها بورقة مسطورة. وما إن قرأها حتى ضمها

إليه وأمطرها بوابل من قبل الشكر والامتنان . ولولا ممانعتها لأهوى على قدميها تقبيلا .

فلقد كانت تلك الورقة إذنا له فى بيع الدار ... وما هو إلا أن طالع الناس بمتجر واسع ولقد أحسن القيام فى تنمية المال . أو هى الظروف المواتية حتى أصبح من المثرين . ومن التجار المعدودين ..

* * *

وصارت الحياة بالزوجين : وهما أسعد ما يكونان حالا . وأرفه ما يكونان عيشا . وأهدأ ما يكونان بالا . وراحت تباهى لداتها بأنها قد أصبحت ربة منزل وزوجة رجل . ولا يبعد أن تكون أم ولد عما قريب فإنها دائبة على العلاج . وسيثمر العلاج ثمرته المرجوة وذلك غاية أمانى النساء . ومنتهى ما يطمحن إليه . ولم يدر بخلدها أن الخيبة تكمن لها بين شفتى من وضعت أملها فيه . ولم تتنبه إلى القدر الذى يبرم أمره فى غفلة من الإنسان . فإن ضجيج السعادة وسناءها يصرف الأفكار عن التفكير فى المستقبل وأخذ الأهبة لما تخبئه الأيام . ومن ذا الذى يفكر غير الفلاسفة فيما عسى أن يكون من تلون الزمن وغدر الإنسان ؟

ومن أين للمرأة عقل كعقول الفلاسفة وكبار الأحلام ؟

إن كانت المرأة تشعر بوقوع الكارثة قبل وقوعها كما يقول المتقولون — وليكن قولهم صحيحا لرهافة شعور المرأة وحدة

عواطفها — ولكن شعورها يطغى على قوة التفكير فيها . إن كان لها قوة على التفكير . فيدفعها إلى البكاء حينا وإلى السهوم حينا آخر . وسرعان ما يبدد عنها ذلك الشعور منطق الرجل الذى يرجع كل الأشياء إلى مسبباتها . .

فلقد أحست المسكينة بحدوث شىء تكرهه . واستولى عليها شىء من الحزن ولكن سرعان ما تبدد حينما قال لها زوجها إن حزنها لا مسوغ له . فهما ينعمان بسعادة لا يهددها شقاء . فأخذت تتغلب على أوهامها : ولكن لم يطرق ذهنها أن الشقاء يكمن فى شفتى مخاطبها . وعليها أن تحرص منه .

كانت الأحلام العذاب تداعب مخيلتها . والخوالج الطيبة تهجس بخواطرها . . ولكنها لا تلبث أن تشعر بشىء من الانقباض يدعها ساهمة .

وفيما هى تعالج عواطفها المختلفة التى تضطرب فى صدرها . نمى إليها أن زوجها قد تزوج بغيرها . فتملكتها دهشة . واستولت عليها حيرة لا قبل لها بها . واشتعلت فى جسمها عوامل الحقد والغيرة . فشاكسته — كما هى سجية النساء — ولكنه لم يحتملها ولم يتمهل عليها ولفظ الكلمة الفاصلة فى شموخ واستكبار دون أن يستعيد فى ذاكرته كيف كان وكيف صار ؟

وإذا كان للمرأة العذر إذا لم تستطع كبح عواطفها إذا جمحت بها . فليس للرجل عذر فى ذلك . وإلا فما قيمة رجولته

إذا شابه ضعفه أمام عواطفه ضعف المرأة أمام عواطفها . وحقيق بالرجل أن يخزى إذا كان له مشابهة من أخلاق النساء . .

* * *

درجت المسكينة برداء الخيبة والأمل المحطم كاسفة حزينة إلى بيت ذويها فلم يتلقوها إلا كما يتلقى غلاظ الأكباد عدواً قهرهم على مغنم . .

* * *

وما كاد صديقنا يتم جملته حتى رأينا السحاب يتراكم فى الجو حتى لكأنه يريد أن ينقض على الأرض . وخلنا الجبال تتزحزح من أماكنها لتطبق على البشر وبدأ الفج الذى كان يقابلنا كالفم الفاغر فكيه لالتهامنا . وبدت رءوس النخل كرءوس العالقة تهتز من الغضب إنذاراً بحلول العاصفة التى بدت طلائعها كطلائع الجيش المغير . وكأن الأرض كانت تحقد على الإنسان فتنفست عن حرارة بالرغم من غيبة الشمس . وخلنا الليل فى تلك الساعة كالغول الأسود يريد أن يتخطفنا بظلامه . وملئت قلوبنا من الوهم رعبا فقمنا نسرع الخطى نحو بيوتنا حتى بلغناها ونحن نلهث من الجرى والجهد . وما هم كل منا بدخول داره حتى قال المتحدث متمما قصته ، ثم انتبذت المسكينة بنفسها إلى أقصى مكان ، وآوت إلى رباط من أربطة النسوان . . .

راقصـــة

كانت كالزهرة المتفتحة تبسم لكل شيء .

وكانت كأنفاس الربيع تمر على كل شيء فتنعشه .

وكانت كالجدول الصافى الذى يترقرق فى هدوء ودعة فيندى ما حوله . . ويمضى فى طريقه طاهراً نقيا .

وكذلك كانت . . فإن براءتها كبراءة الملائكة . ونقاءها كنقاء الشمس تبعث الدفء والنور بإشعاعها إلى الأرض . دون أن تهبط إلى الأرض .

ولم تلجأ إلى الرقص إلا لأنها تريد أن تعيش . ويعيش معها غيرها .

والرقص فن ، ورسالة الفنون فى الحياة تنقية الأوضار من الحياة والارتفاع بالبشرية إلى ذروة الكمال .

وإن هبط الفنان بفنه فليس الذنب ذنبه ، ولكنه ذنب الناس الذين لا يدعون الفنان يعيش إلا إذا نزل بفنه إلى مستواهم .

ولا بد للذين يشعرون بعزتهم أن لا يكونوا عالة على أحد . والذئاب لا تتورع عن افتراس النعاج الهائمة . والراعى مهما كان

أمينا فإن نفسه ذات مسارب وأهون ما يتسرب إليها الملال . وهى لا تريد أن تثقل على أحد حتى لا يملها الناس .

كانت تستطيع أن تختار رجلا من هؤلاء الرجال الذين يتهافتون على يدها فتعيش عيش الملكات . . لكنها لا تستسيغ العيش بدون أمها وأخواتها الصغار . وتلك عاطفة سامية لا يمتلىء بها إلا قلب إنسان . . فإذا ضحت بهنائها فى سبيل أخواتها وأمها فلأنها إنسانة .

والإنسانيون لا يسعدهم أن يتقلبوا فى أحضان النعيم ومن حولهم يتقلبون فى أكف الحرمان . . وهى من هذا الصنف الممتاز .

وثمانية نفوس تتطلب الطعام والشراب والكساء والمأوى حمل ثقيل وعبء لا يصمد له إلا أولو العزم من الرجال .

وهى أنثى ومن حولها أناث مثلها ، وبيئتها تثقل الأنثى بالقيود والأغلال ثم لا تؤدى لها ما تستلزمه القيود والأغلال من واجبات .

ما العمل ؟ ألقت على نفسها هذا السؤال الذى يلقيه على نفسه كل من وقع فى مشكل . فأجابها كل شىء حولها . العمل . . ولكن ما هو العمل ؟ وما نوعه ؟ التجارة تتطلب رأس المال وهو مفقود .

والوظيفة لا تقيت الثمانية - ولو كانوا أطفالا - الخبز الحاف .

وراغب الزواج منها لا يكلف نفسه إلا بها ، أما أخواتها وأمها فهذا مالا يحتمله الأزواج ولو كانوا فى ثراء المهراجات .

* * *

إنها شهية . . لكنها لا تسمح أن يلتهمها الجياع .

وهى رشيقة ذات قوام مياس وخصر نحيل ولدونة كلدونة الأغصان .

إن كل ما فيها راقص مترجرج . لم تخلق إلا لترقص . . والرقص فن . ورسالة الفنون فى الحياة سامية . . والأرباح مغرية .

ولكن الناس لا ينظرون فى الراقصة إلا المرأة اللعوب التى لا تريد من عرض مفاتنها إلا إغراءهم بها فيجترئون عليها بشتى أنواع الاجتراء . وإن فى الناس الطائش والمجنون والعربيد . والجمهور فى جملته لا يرحم . .

وإن لها لفتنة . وإن فى عينها لسحراً . وإن فى ابتسامتها ما يشعل فى النفوس النار .

فإذا اجترأ عليها العربيـــد والطائش والمجنون . فإنهم إنما يجترئون تحت تأثير الفتنة العمياء . والسحر الجارف . والنار الموقدة .

وإذا لم يرحمها الجمهور فلأنه لا يحكم إلا بما يرى . ولم ير فيها إلا جسما يترجرج ونهداً يتهزهز . وكفلا يتخلع . وطرفا يتكسر . وكل أولئك لا تبدى بها للأعين إلا المرأة الخليعة التى

لا تحفل إلا بإثارة الغريزة . واقتناص الرجل وابتزاز الأموال . فإذا لم يرحمها فإنه لا يعرف من أمثالها غير ذلك . ولا يحكم إلا بما يرى . . أما صفاء النية . وطهر القلب . ونقاء الضمير . فلا تسمح للجسم أن يتكشف عن مفاتنه أمام الناس . ومن أين للجمهور أن يصل إلى الأعماق أو ينتهى إلى الحقائق ؟ ؟

* * *

إنها جيدة التفكير خطر لها كل ذلك وكاد يقعدها عما اعتزمته . . ولكن الحياة خبيثة جبارة . فقد خيرتها بين إحياء ثمانية أو إماتتهن جوعا . ولا سبيل أن تتراجع فى الخيار . ولا سبيل أن تتراجع الحياة عن رأيها . فلتختر أحد الأمرين طوعا أوكرها . والحياة مهما تجهم وجهها ومهما قست فى أحكامها ، فإن حبها عميق متأصل فى النفوس وهو أعمق ما يكون فى النفوس اليائسة منها المتمردة عليها . ألم تر إلى الذين يفتكون بها فى أنفسهم وينتحرون فراراً منها . . لا يكادون يحسون بنهايتهم حتى يبذولوا ما وسعهم لعودتها . ولا أدل على ذلك من المرارة التى ترتسم علاماتها على وجوههم . وتظهر فى حركاتهم العنيفة التى يريدون من ورائها إعادة الحياة إليهم مرة ثانية . إن التفكير فى البعد عن الحياة مؤلم أفلا يكون أشد إيلاما على النفس معالجتها لمفارقة الحياة ؟

ها هى أمها الفانية تدمع عيناها وكأنها جذع يعتصر فتبادر

لتمسح هذه الدمعة التى إن توالت فسوف يدرك الجذع الجفاف . .
وتنظر إلى أخواتها فتجدهن كالزهور الذابلة وفى نظراتهن تعبير صامت يدك الصخر أسى وحسرة ، ويلين الجماد إشفاقا ورحمة .

وأخذت تقلب الرأى وهى تتقلب فى مضجعها . . ولكن من أين للرأى أن يتحرر من ضغط الحاجة ؟

ومخيلة الجائع لا تتصور إلا الرغيف .

وعقل المعدم لا يفكر إلا فى المال .

وليس للعاطل أمنيه إلا العمل .

أما أن الرغيف كيف يأتى ؟

والمال كيف يجمع ؟

والعاطل كيف يعمل ؟

فالتفكير فى ذلك لا يستقيم مع خواء المعدة وصراخ الأمعاء .

ولاخيار للغريق فيما ينجيه من اللجة فهو يتعلق بما يصادفه فى البحر . ولو كان خنزير البحر .

* * *

وقف صاحب المسرح مأخوذاً بالجمال القادم عليه . وأصغى مقبلا على الحسن البكر وهو يتحدث . . ورحب بالعرض يرحيب الفرح بالمفاجأة السارة . . وأعد لها أفخم ما يعده العاشق الولهان لفتاة أحلامـــه . وأعلن عنها فى الصحف والمجلات . وعلقت صورتها فى كل مكان . وكان الإقبال شديداً لرؤية الوجه الجديد . . وصفق لها الجمهور . . ونصبت لها الفخاخ . ولكن

الطعم لم يغرها على الوقوع . فلقد أغدق صاحب المرسح عليها إغداقا ما كانت تحلم به . ولم يرد بذلك إلا الاحتفاظ بنجمة مسرحه المتألقة . وكوكبه اللامع . . واكتفت هى بذلك عن كل ماسواه..

كانت تنثر البسمات على النظارة وتصافح المعجبين ولا تبخل بالحديث والمؤانسة على من يطلبهما منها فى فترة (الاستراحة) .

***

لم يترك الناس هذة الراقصة العذراء كما هى عادتهم فاتهموها بشتى الاتهامات ، وأذاعوا عنها ما شاء لهم الخيال من أسواء .

وظلت كالشمس تبعث الدفء والنور إلى الأرض دون أن تهبط إلى الأرض .

ولكن كان لكل نظرة جائعة تتجه إليها طعنة فى قلبها . ولكل كلمة مكشوفة خنجر مسموم يحز فيها ، ولم تحتمل كل ذلك فماتت ولكنها تركت لأمها وأخواتها الصغار ثروة تقيهم مصارع الجوع . وتمنعهم عن موقف الإبتذال . وقال الفن إنها فى الجنة ، وقال المجتمع إنها فى النار ! ! !

الحمـــاة

كانت الدار على سعتها هادئة من كل حركة ، إلا ما كان من رنين النحاس والأوانى التى كانت الخادم قائمة بغسلها ، وكانت ربة الدار تجلس على حشيتها وفى يدها فنجان الشاى ترتشفه فى حركة عصبية . . . وكأنها كانت تقاوم فى نفسها ثورة تريد أن تنطلق ، ولكنها تتغلب عليها .

وربة الدار هذه كانت امرأة قد تجاوزت الخمسين من عمرها ، إلا أنها كانت ممتلئة الجسم وعليها مسحة من بقايا جمال غيبته السنون ، ولكن أطلاله تدل عليه قد وخطها الشيب ، وخطت الخمسون عاما على وجهها بعض الخطوط . وقد بدا على وجهها أثر ما كان يعتمل فى نفسها ؛ لقد كانت تخاطب نفسها قائلة :

ما لها كلما ذهبت إليها لا تعيرنى التفاتا ؟ أعبث بقلبها هذا الغريب عنا وعنها ، فلم تعد تفكر إلا فيه ، ولم يعد يهمها من أمرى شىء ، آثرته على وعلى أبيها وعلى أسرتها ؟ ؟

أنسيت حنانى بها وعطفى عليها وحبى لها ؟ أنسيت سهرى وتربيتى ؟ كنت أوثرها على إخوتها وأعطيها كل ما هو غال وثمين . . . ما زوجتها لتنفض يدها منى وتقبض بكلتا يديها على زوجها . . . هذا الزوج الذى أعطيته فلذة كبدى وثمرة

فؤادى . . . وآثرته على غيره من الخطاب ، أصبح لا يحترمنى . . . لا يقدرنى . . . لا يقبل يدى . . . أنا التى مهدت له طريق زواجه بابنتى الحبيبة . ليكون تحت أمرى ، فإذا هو ينفر منى . سأريهما عاقبة العقوق . . . سيدفعان ضريبة الاستهتار بى . . . تبا لهما من زوجين مكرا بى ، حتى إذا تم لهما ما أرادا نسيا جميلى ومعروفى ولفظانى لفـــظ النواة . فلا يطلعانى على شىء من أمرهما ، ولا يسترشدان برأيى . ولا يظهرانى على الدخل والخرج . . . يدسان عنى النقود كأنى عنهما أجنبية .

هذه الخواطر المجنونة كانت تزمجر فى صدر صبيحة حماة راجح زمجرة البحر الصاخب فى ذلك الليل الساكن بينما كان راجح يقول لزوجته وهما ينعمان بحبهما فى عش الزوجية المقدس ... أفى الحب بجانب السعادة والنعيم جحيم لا يطاق . ؟؟

أليس ذلك الذى يخرج عن مألوف الناس ، ويتمرد على تقاليدهم ويستهزىء بعواطفهم ، ويخرج عن أوضاعهم أرعن ؟

وألف مرة أرعن ذلك الذى يستخف بحرمة الدين ، ويخرج عن التعاليم السامية الحكيمة التى يأمر بها .

حب من شئت من بنات حواء . وائت البيوت من أبوابها تستمتع باللذة . والنعيم . أما الاستهتار والعربدة . . . أما الخروج على المألوف ، والتبرم بقسوة الناس ثم البكاء من الهجر والحرد على الرقباء والناقمين ، فتلك أعمال الطائشين وأفعال المتهوسين .

* * *

حب متبادل ، وصداق مدفوع ، وعقد مخطوط . . أتيا البيوت من أبوابها ، ولم يثيرا غضب الناس ونقمتهم فليجهرا بالحب أو ليخفياه سيان . . . وليتناجيا تحت أضواء القمر . ويتناغيا تحت أستار الظلمة . وينعما بالوصل ، وليترعا كؤوسهما باللذة . . حب وشباب . أو شباب ولذة ليس فى الحياة غيرهما . . ومجنون من يقول غير ذلك . وإلا فهو سخيف .

ولكن غاب عن فكر راجح أن الحياة سخيفة ومجنونة ، لا ترى سيرها يستقيم ما لم يكن بجانب نعيمها جحيم ، وبجوار سعادتها شقاء ، وبجانب لذتها ألم ومرارة . ولا بد لكل آدم وحواء من شيطان يخرجهما من الجنة ويذيقهما من الآلام ألوانا ومن العذاب أصنافا . نعما بجنتهما ، وقضيا بقية ليلهما فى نوم مريح وأحلام ذهبية .

وفى الصباح ذهب راجح لعمله وقامت رحيمة تدبر شئون منزلها ، ولكن أمها تدخل عليها فتتلقاها بالبشر والترحاب ، وما إن خلت صبيحة بابنتها حتى قالت لها :

— رحيمة .. رحيمة .. أفيقى لنفسك . أين أنت ؟ أين أنت ؟

— مالك ياماما ؟ طيبة ، والحمد لله ، والأشياء مرضية .

— زوجك . . زوجك . .

— ماله ياماما . . حدث منه شىء لا سمح الله ؟ ؟

— رحيمة . . أنت لا تعرفين الرجال . لا تميلى لزوجك كل

هذا الميل . لا تظهرى له حبك لئلا يستخف بك وترخصى عنده . تدللى عليه .. انفرى منه ليستقيم لك .. ليقدرك ويعزك ويتلهف عليك .

— زوجى مستقيم يقدرنى .. لا يغضبنى .. يحبنى (موت) .. والله يا ماما إننا نعيش كأحسن ما يعيش الأزواج ونحيا كأمتع ما يحيا الأحباب . حياتنا كلها سرور . كلها فرح . كلها نعيم . كلها متاع .

— مسكينة أنت يا رحيمة . أبوك ما كان ليطيعنى هذه الطاعة العمياء لولا تدللى عليه وإعراضى عنه ... ومعاكستى له . بالمعاكسة صار يشاورنى فى الكبيرة والصغيرة . . صارت نقوده بيدى . . عمله . . دكانه . . تصرفاته . . كلها بأمرى .

— وكذلك زوجى يا ماما لا ينفق شيئا إلا برأيي . . ملابسى برأيي . . ملابسه برأيي أيضا .

— هل تدرين عن نقوده ؟ وأين يختزنها ؟ وكم هى ؟

— لا ، ولا ضير على من ذلك . راحتى موفورة ومطالبى مقضية .

— ولماذا لا تعرفين كل شىء من الآن ؟

— لا داعى للمنازعة وتنغيص العيش وتنكيد الحياة .

لم يجد الحديث ولا المحاورة ولا المداورة مع ابنتها . ولكنها لم تيأس وراحت تكرر عليها مثل هذا الإغراء كلما خلت إليها . . ولكنها لم تلق غير الاعتراض تارة والجدال والمخاصمة من ابنتها تارة أخرى .

... كظمت غيظها وعمدت إلى الكيد .. كيد النساء الموصوف بالعظم . . ومضت الأيام ، وحملت رحيمة ، وآن أوان ولادتها وجاءت صبيحة لتقيم بجوار ابنتها وتعنى بأمرها وتقوم بواجبها حيال ابنتها النفساء — كما هى حجة الحموات دائما —

تم الوضع وحل مولود جديد أضيف إلى قائمة الوجود ولكن لا ليهنأ بعطف أبيه وحنان أمه ، بل ليقذف فى جهنم الحماة وسعيرها قذفا .

* * *

... كاد راجح يطفر من الفرحة بمولوده الجديد وراح يعمل كل ما يمكنه . . فهذه العقيقة . . وتلك الذبيحة للفقراء . . وهذه الكسوة للداية . . وهذا الشمع (والفتوت) والحلوى للصبية الذين حضروا لتسميته يوم سابعه . . وهذه مأدبة للأصدقاء والأصحاب والأصهار تكريماً للمولود الجديد . وهذه ثرثرة طويلة عريضة يغنى بها النساء والرجال فى صفات مولوده ومناغاته وعينيه الحلوتين وأنفه الدقيق ويديه الصغيرتين كأنه لم يولد لأحد مولود قبله وسوف لا يولد لأحد مثله . حب مجنون وعطف زائد وفرحة زادت عن الحد . وكانت صبيحة (حماته) ترصد كل ذلك من زوج ابنتها لتسلك طريقها على نور وبينة ولتمسك بخطام هذين الزوجين وتجرهما إلى حيث تريد .

لقد كانت صبيحة كالنمرة المتوثبة فى غمرة الفرح والبهجة التى

كانت الدار غارقة فيها . كانت تجلس على الحشية تترقب كل حركة تبدو من ابنتها وكل بادرة تبدر من زوج ابنتها حيال المولود الجديد ، إنها كانت بهذه المراقبة الصاعقة تنسج خيوط المأساة وتحيك أطرافها .

ولكن أحداً من الحاضرين لم يفطن إلى شيء من ذلك . إنها تبتسم تارة ، وتقهقه تارة أخرى لما كان يبدو أمامها من لعب الأطفال بالشموع وتناحرهم على الفطائر . ولو أن أحدا من الحاضرين ألقى عليها نظرة فاحصة لوجدها لم تشارك بالضحك والابتسام إلا لتخفى شيئا لا تود أن يلحظه منها أحد . فإن ذهنها منصرف عن كل ما حولها بل لعلها لم تبتسم ولم تقهقه إلا لخاطرة من خواطر نفسها .

وقد بدأت تلك الخواطر تنطلق من عقالها عندما خلت الدار من الزائرين والزائرات . والمهنئين والمهنئآت . فقد اقتربت من سرير ابنتها النفساء . فوجدتها تناغى طفلها فى فرحة وحنان . وتلقمه ثديها فى هدوء ووداعة . فحدقت وباركت ودعت لابنتها بالسلامة . ثم أخذت تقص على ابنتها تدليل فلان لزوجته ودلال فلانة على زوجهـــا . . وأن فلانا كانت له دار كتبها باسم زوجته وغيره بذل لقرينته نصف ما يملك لتعود إليه بعد نشوزها . . أما فلان فقد عاد من السفر يحمل لزوجته مصوغات

وأثاثا وتحفا وطرفا . وتخلى الآخر عن كل أثاثه لزوجته وما أسعد فلانة وما أطيب زوجها . . رأيتها تثور عليه فلا يغضب وإذا شتمته احتملها . . وإذا رفسته ابتسم لها وإذا انتهرتة أغضى حياء منها . . وما رأيت مثل فلان فى توسعته على أهله وتفريحه لهم فهو لا يحتمل أن يرى زوجته فى حرمكة وسمومها . . فلا يكاد يبتدىء الصيف حتى يذهب بها إلى الطائف لتنعم بهوائه الرقيق وتستمتع بجوه الحنون وتلهو فى بساتينه النضرة . ولا يعود من الطائف إلا ليعد معدات السفر ليزيرها المدينة المنورة فهى دائما مصيفها الطائف ومشتاها بمكة وربيعها بالمدينة ، وقد أعد لها متنزها فى إحدى ضواحى مكة لتقضى فيه أيام الخريف حيث الخلاء المنبسط والنسيم الرقراق ومناظر الجبال الرائعة وهى منسابة فى الخلاء انسياب الموج فى اللجة وما أحلاها وهى ترفل فى الحرير بين السفوح وفوق الروابى تحت أشعة القمر . وزوجها يبسم لها ويرعاها وينفذ أوامرها كأنما هى ملكة وكأنما هو خادم لها .

وليت لك ما لفلانة من الملابس والحلى فإنه لا يستجد شىء من الأقمشة إلا وهى أول من تلبسه ولا يستحدث تفصيل إلا وهى أول من تختال فيه . ولا تكاد توجد حلية طريفة إلا وهى أول من يحلى بها جيدها أو معصمها أو خنصرها . ولقد رأيت فى أذنيها قرطين كالنجمتين صفاء ولمعة من الماس البراق الثمين . تمنيت مثله لك . كل ذلك من عناية زوجها بها . أما زوجك —

يا حسرة — فإنه مع تقصيره بواجبك وعدم عنايته بك فلا أراه — دائما — إلا آمرا أو ناهيا لا ينظر إليك إلا كما ينظر للخادم . وما رأيتك معه إلا كالقطة تتملقينه وتدورين حوله . وأنت عنده المهينة الذليلة لا يستشيرك فى أمر . ولا يقبل منك رأيا ولا يشركك فى مهم . ولا تعلمين من دخله وخرجه قليلا ولا كثيرا . يلاعب الفتيات ويغازل النساء . . لا تعلمين أين يذهب إذا غاب ؟ ولا تدرين من أين جاء إذا حضر ؟

. . استسلمت له وأطعته حتى استخف بك وطمع فيك . فإذا أغضبك لا تشتكين وإذا أهانك لا تحتجين . وأنت لديه كالسجينة لا يبيح لك الخروج . كأنه يشك فى طهرك ويرتاب فى عفافك ، وأنت أنت التى علمتك المتدينة العفيفة . . ربيتك التربية الطيبة وأنشأتك النشأة الصالحة . ثم هو يمنعك من زيارة أقربائك ويحظر عليك مخالطة الأتراب . . إن هذه إلا معاملة قاسية لا تطاق ، ورجلك هذا لا يحتمل . . انظرى نفسك فى المرآة . . لقد اصفر لونك وذبل عودك ووهنت قواك بما يرهقك به هذا الظالم القاسى الذى لا يساوى فى سوق الأزواج بصلة . علام كل هذا الصبر الطويل ؟ وفيم كل هذا الاحتمال ؟ ولم هذا الرضا بكل هذا الذل والهوان ؟ ؟

. . ثم صمتت متفرسة فى وجه ابنتها لترى تأثير كلامها فيها . . فقالت رحيمة :

قد ارتبطنا — يا أمى — رباطا وثيقا ولم أتزوجه باختيارى وبرأيي ولكن كان زواجى به باختيارك وبرأيك . . وقد توثق قيدنا بهذا الطفل . ولو كنت بمفردى لهان الأمر ولكن أين أذهب وأنا لا أستطيع فراقه . .

— طفلك فى عينى . . فى قلبى . . وتناولت الطفل وضمته إلى صدرها بحنان مصطنع ثم استأنفت حديثها . . . إن دار أبيك مفتوحة وهى تسعك وتسع عشرة أطفال معك وتالله إن أباك وإخوتك ليفرحون بهذا المولود كفرحتك به إن لم أقل أشد ، عندنا الراحة مضمونة والخيرات موفورة والأطعمة كثيرة ونحن بحمد الله فى هناءة ويسر ورخاء . . تعالى معى وكلى واشربى واضحكى والعبى . . فبنات الخالة متوحشات لك وبنات العم متشوقات لرؤيتك . . قومى وانظرى مثيلاتك كيف يمرحن ؟ فامرحى معهن فإن الوجوم مسخك والوحدة أضرت بك وكثرة السكوت أثرت فى نفسك حتى تشوهت سحنتك وساءت خلقتك فلقد كنت لدينا قبل أن نرى هذا الوجه العابس — وجه زوجك المغرور المتكبر — كالزهرة المتفتحة والتفاحة النضرة . . وما أراك اليوم إلا كالليمونة الصفراء أو كالغصن الذابل . .

. . . هذا وأمثاله ما كانت تنفثه تلك العجوز الحيزبون فى أذن فتاتها الوادعة . وكم يكون رائعا إذا قلنا إن رحيمة لم تتأثر بكل ذلك . فلم يسعها أمام إصرار ابنتها إلا أن تخرج من لديها مغضبة أو كالمغضبة وذهبت إلى دارها .

. . . عاد راجح من عمله فتلقته بوجه ساهم لم يتعود أن يلقاها به فقال لها :

— مالك يا رحيمة ؟

— لا شيء .

— إنى أرى عليك سهوما ما تعودت رؤيته .

— أمى .

— مالها ؟

— تريد أن تفرق بينى وبينك .

— ولم ؟ أأسأت إليها بشيء . أبدر منى فى جانبها ما عسى أن تتكدر منه ؟

— لم يبد منك حيالها غير الحب والاحترام .

— إذا ، فلماذا تريد التفرقة بيننا ؟

— يظهر أنها تريدك لى كما هو شأنها مع أبى .

— وما هو شأنها مع أبيك .

— إنها تقبض عليـــه . أعنى على لسانه . فلا يتكلم إلا ما تقول . . وعلى فكره فلا يتصرف إلا كما ترى ، وعلى ماله فهو لا ينفق منه إلا بأمرها وإليها مرجعـــه وهى له كالسيد وهو لها . .

— كالعبد . . .

— كالآلة الصماء تحركه كيفما أرادت .

— وماذا رأيك أنت ؟ فى إمكانك أن تفرضى على دكتاتورية أمك الهتلرية .

— إنى أخشى إن أنا فرضتها أن تكون عاقبتى كعاقبة هتلر .

وتضحك له . . فيضحكان جميعا . .

ثم يقول لها : لا تهتمى بثرثرة أمك وتخريفها ولا تظهرى لها شيئا . وعليك بالصبر والاحتمال .

— لقد صبرت كثيرا وأنا مصممة الآن على طردها إن عادت إلى مرة أخرى .

— لا لا . إنك لو فعلت يقول الناس لقد ضاق راجح بحماته واستثقل منها واتهم باللؤم والكزازة من الأهل والمعارف .

— ماذا يهمك من هذا الاتهام المفترى ما دمت أنت بعيداً عن كل اتهام فى حقيقة أمرك .

— لا يا رحيمة فإن أنا لم أخش من الاتهام بالبخل فإنى أخشى عليك من أن تتهمى بالعقوق . . ثم إن مرضاتها من قبلك واجبة ولا أحب أن تعق والدتك . . فهزت رأسها علامة الاقتناع بقوله .

ولكن الأم ما زالت تلح على ابنتها وتتفنن فى إغوائها وإغرائها باذلة ما فى وسعها فى اقناع ابنتها بالتسلل معها من هذا البيت الخانق الذى يكبت الحرية إلى بيت أبيها حمى الحرية ومحل البهجة ومقر الأفراح . . . ولكن رحيمة كالصخرة الصماء لا تتأثر

بشيء مما تبديه وتعيده عليها أمها ، إذ لا ترى مسوغا لنشوزها على زوجها . . . ولا ترى فى شخص أمها إلا شيطانا يتقمصه . . . يريد إخراجها من الجنة . . .

وفى صبيحة يوم من الأيام فوجئت رحيمة بأمها وهى تقول لها . . .

— يا بنتى ، يا حبيبتى . . لقد جئتك بملاءة حريرية لتتدسى فيها وتأتى معى فلقد أخبرت أباك أنك ضقت بزوجك ولم يعد بوسعك معاشرته .

— لا ، لا يمكن أن أخرج بدون إذن زوجى .

— إذن زوجك ؟

— نعم زوجى . الذى هو الآن أبدى لى منكم .

— أبدى لك منى ومن أبيك .

— نعم زوجى راجح الذى يؤثرنى على نفسه فى كل شيء . . فى المطعم . . فى المشرب . . فى الملبس . . وزوجى الذى لا يعرف النوم خارج منزله ولا يأكل إلا فى داره ومع أهله . . زوجى الذى لا يخرج إلا لأداء عمله ولا يفكر إلا فى ولا يعمل إلا لى . . زوجى الذى له من دينه ما يمنعه عن الفحش ، ومن عزة نفسه ما يبعده عن الدناءة . ومن مروءته ما يحمله على البر بذويه وأقربائه وما رأيته يوما على ما أكره ، وما رأيت منه إلا كل ما يزيدنى تعلقاً . آنست منه رجولة مكتملة ونفسا عالية ، فلقد خبرته أيام كان فيها من الضيق والإقتار ما يحمله على مد يده لكل شيء تناله

ولكنه لم يأخذ حليتي وأنا التي عرضتها عليه لتفريج ضائقته ولا رنا إلى ما وهب لي والضرورة تلح عليه في أخذه . يستنكف أن يأخذ مني قرضاً وهو في شدة الإقتار ويأنف أن يقف مني موقف المستكين . ولقد سألته يوما لماذا لم يكاشفني بما يهمه فأجابني أنه لا يريد أن يضيف إلى ما احتمله من متاعب الحمل والعناية بالبيت — وهي متاعب يراها كبيرة — متاعب أخرى . وأنه يقوى بمفرده على احتمال الحياة وأوصابها في خارج المنزل . . أرأيت حنانا مثل هذا الحنان البالغ في رجل غير زوجي ؟ وكانت رحيمة تتمتم جملتها وهي منصرفة إلى عملها تاركة لأمها الحرية في الخروج من الدار .

خرجت الأم وهي مغضبة حانقة على صلابة ابنتها وتمردها عليها . . ولكنها — من سوء حظ هذين الزوجين — لم ترد أن تستمر في الغضب لأن الغضب لا يجدي ولا يأتي بالنتيجة المبتغاة التي ترمي إليها . وهي لم تيأس بعد من تطويع ابنتها لتنفيذ رغبتها . وهي واثقة أيضا أن كيدها سوف يكون عظيما وسوف تنتهي إن عاجلا أو آجلا إلى ما تريد من زوج ابنتها وابنتها على السواء .

وازدادت عتوا وعنادا حينما عادت لتزور ابنتها ورأت نفور راجح منها واختلافه عليها . . فلقد بدا راجح يبدي استياءه علانية من دخولها منزله بعد ما صار إليه علمها وعرف دخيلتها وما تنويه حياله لأن رحيمة حدثته بكل ما كان من أمها . وكان أخشى ما يخشاه أن تتأثر حليلته في النهاية بكلام أمها ولم يستطع كظم غيظه

فأنب حماته على صنيعها وانتهرها فعدت ذلك إهانة لها واجتراء كبيرا عليها وبدأت تناوشه وتختلق له العيوب والمساوىء وتسمعه كل ما يغيظ ويحنق حتى خرج عن صوابه وصوب إليها لعناته . فبكت واستبكت ابنتها بكلامها. وإن أمضى سلاح المرأة دموعها . وأخذت تقول وهى تشهق : لو كانت ابنتى تعزنى لما تجرأ علىّ هذا الوغد ولوقفته عند حده . ولكن، آه! ابنتى لا تعزنى ولا تحبنى ولا تشفق على وإلا لما استطاع إهانتى أنا الكريمة .. أنا العزيزة .. أنا المحترمة عند كل من يعرفنى . من أجلك يارحيمة كل هذه الإهانات التى لحقتنى . لو كنت تعتزين بأمك كما يعتز أترابك بأمهاتهن ما استطاع هذا الوحش . . هذا الجانى أن يجعلنى ذليلة مهينة أمامك وعلى مرأى ومسمع منك .

إيه ، إيه . . بكاء وشهقات لا آخر لها . . .

رق قلب رحيمة لأمها ووقفت موقف المدافع عنها وراحت تلوم زوجها وتؤنبه ساخطة محنقة فنظر إليها راجح ونظر الى أمها نظرة اشمئزاز وأدار إليهما ظهره. وما كاد يحتويه الشارع حتى نفذت صبيحة ما أرادته وخلفنا الدار دار الزوجية تنعى من بناها .

عاد راجح إلى داره آخر النهار وكانت نفسه تراوده على إنهاء المشكلة بالحسنى . فإن لم يوفق فسيعرض الموضوع على العقلاء من الأهل والأقارب وهو لا يعلم ما ستستقبله به الدار . . ووجد داره خالية من كل شىء . . من الزوجة ومن الحماة ومن الطفل ومن

الأثاث ومن ملابسه . . حتى ملابسه لم تعفها الحماة من الجلاء من الدار تشفيا وانتقاما لنفسها .

عرض الأمر على أبي زوجته فلم يقابله بغير اللوم والتأنيب . بل وجد حماته تطل عليه بوجه زوجها تنهره وتكيل له الشتائم والسباب . فعاد حزينا . . تطوع أناس للشفاعة فلم يفلحوا . . وتطوع آخرون لإعادة الزوجة فكان نصيبهم نصيب من سبقهم من الشفعاء . . وقامت دعاية طويلة عريضة ضده بين نساء الحي مصدرها حماته . . وإذا هو في وسط ثورة كلامية لا قبل له باستماعها ... واختلقت حوله الأكاذيب . . وانقلبت الحياة التي كان يظنها لا يمكن إلا أن تكون نعيما لمن لم يثر على تقاليد الناس ولم يتمرد على أوضاعهم إلى جحيم لا يطاق وثورة لا تهدأ .

فكر المسكين وأطال التفكير فلم يجد أحسن من أن يخلد إلى الهدوء ويترك حماته وزوجته وابنه جانبا فلا يخوض في حديث يمت إليهم حتى تنطفىء هذه الثائرة . ويعود إلى زوجته رشادها فهو متأكد أن كل ما حصل لم يكن ليرضى حليلته التي لا ينكر حبها له وحدبها عليه . وسوف لا يمضي وقت طويل حتى تأخذ بأسباب العودة إلى عشها الدافىء الجميل .

... مضت الأيام وراجح يتقلب على نيران البعد ؛ بعد زوجته الذي لا يطيقه ولا يحتمله وبعد طفله الذي أذواه ... ذلك الطفل الحبيب عنده والذي تبسم له الدنيا من بسمته

الملائكية الطاهرة ... ولكنه يتجلد ويمضى شهر وتتلوه شهور مشى وثلاث ورباع .

وترى حماته أنها لم تصنع شيئا فلقد قهرها بجلده وصبره واحتماله وراحت تحادث نفسها كيف استطاع الشقى أن يصبر كل هذه المدة وهو من علمت حبه لزوجته وجنونه بابنه . . إنه لم يأتنى ، لم يتزلف إلى كما كنت أقدر . . ما السبب ؟ ها ، ها . لقد اهتديت إلى السبب . . إنه مطمئن على ابنه إذ هو فى حضن أمه تحنو عليه وترعاه . . أترانى لو رميت له ابنه . . هل يستطيع أن يكفله ؟ لا ، لا . إنه لا يستطيع وليس لديه من أقاربه ما يكفله ومن عساه يحتمل عناء الأطفال وتربيتهم ؟ إننى إذا رميت له به سوف لا يلبث أن يحتاس ويغلب . فلا يجد مناصا من العودة إلى ويرجونى ويستعطفنى . وهناك . أستطيع أن أملى عليه شروطى التى أعددتها وما عسى أن تكون شروطى ؟ أوه ، هذه ظاهرة . أن يكون دخله وخرجه بيدى ولا يصدر إلا عن رأيى ولا يعمل إلا بمشورتى ، إنه يكسب كثيراً فليكن كسبه عندى . ولأكن أنا وحدى الذى أسيره كيفما أردت . ولكن رحيمة هل تطيق فراق ابنها ، إن فراقها له سوف لايطول . وما هى إلا أياما معدودة ربما لم تزد على ثلاثة أيام أو أربعة وتجتمع بابنها وبزوجها دفعة واحدة . . رحيمة تحب زوجها وما مرضها إلا ولهها به لم يفد فيها طب الدكاترة ولم يقصر والدها فى إحضار كل طبيب مشهور ولم يبخل بثمن الأدوية وكل ما يتطلبه علاجها ، ولكنها

لم تشف ولم تملك صحتها من يوم أن جاءت عندنا إلى الآن . فلأضع حدا لكل ذلك ولآخذ طفلها . وإذا مانعت يا صبيحة ، كيف العمل سآخذه بالرغم من ممانعتها فأنا أعرف بما يصلح لها . هيا إلى العمل وإلى السرعة فى العمل . ولم تفد ممانعة رحيمة لأمها فى أخذ طفلها . . لم تقو تلك الممانعة الضعيفة من الفتاة المريضة فى رد الأم عن تنفيذ ما عمدت على تنفيذه واختطفت الطفل من أحضان أمه . وأمرت زوجها بقذف المولود فى وجه أبيه . . وما أسرع ما يستجيب هذا الزوج إلى ما تمليه عليه زوجه دون ما تدبر أو تفكير ، فإرادتها إرادته ورأيها رأيه . . وكل ما تشير عليه به فيه البركة وكل أوامرها نافذة كأنه جندى أمام ضابط . . عليها الأمر وعليه الطاعة العمياء .

... حمل الطفل وقذف به فى وجه أبيه . ولم يلتفت إلى ما أحدث من ضجة ولم يستمع إلى كلام الناس ولكنه أسرع ليخبر زوجته بأنه قذف الطفل فى وجه أبيه كما أمرت دون أن يخل بحرف من كلامها . شكرته أو لم تشكره . . لديه سيان . . ولبثت تنتظر .

* * *

. . . أمى . . أمى . . يا أمى . . صوت مرتعش يرن فى أذن صبيحة منبعثا من سرير رحيمة . . فخفت إليها فوجدتها تنتفض على فراشها كما ينتفض العصفور المذبوح وهى تقول بحروف متقطعة . . أمى . . قـ . . . ل . . تنى . . . فانكبت عليها تقبلها وتناديها : رحيمة . . رحيمة . . ردى على . ولكن أين رحيمة ؟ إنها جثة هامدة !

نقـــاش

هناك فى ذلك الجبل الشامخ الذى لا يبعد عن العمران حتى يجافيه ، ولا يدنو منه حتى يناجيه . كهف اتخذ منه أحد الذين هزمهم المجتمع وقذف بهم بعيدا عن خضمه الصاخب الرجاف سكنا ومرصدا ، سكنا يقيه حرارة الشمس واختلاف الأنواء . ومرصدا يرصد به حركة الخضم المائج بمن فيه . فينظر إليهم وإليه نظرة الأسيف المغلوب على أمره ولكنها نظرة يتخللها شىء من يقظة وشىء من انتباه ، يجعلانه ملما بشئونه ووقائعه .

وكان لهذا المنعزل فى كهفه صديق يزوره الفينة بعد الفينة ، ويدور بينهما نقاش فى شتى الموضوعات التى يسوقهم إليها الحديث بغير اتفاق سابق بينهما على الموضوع الذى يتحدثون فيه ، وهذه صورة لإحدى المناقشات التى دارت بينهما .

رأى الصديق الزائر صديقه ساكن الكهف قابعا فى كهفه تحيط به ظلمة لا يخففها إلا ما ينفذ إليه من فتحة الكهف من أضواء ضعيفة لا تكاد تبين فى ظلام الكهف الدامس ، ولكنها تخفف شيئا ما من عتمتها . فصاح به ماذا تصنع يا صديقى ؟ فأجابه ساكن الكهف : إنى أجهد نفسى فى تلمس النور من فتحة الكهف لأقرأ رسالة وصلتنى من صديق مثلك ، وكأن أصدقائى لا يقنعون

بما منيت به من هزيمة قذفتنى إلى هذا الكهف ، وأبعدتنى عنهم فهم وأنت معهم مازلتم تسيبون لى المتاعب برسائلكم وزياراتكم لى.
فلم يبال الصديق بهذا التأنيب ، بل قال له

الصديق : إذا كنت فى مخبئك هذا على وضعك هذا . ولن تتعرض للشمس ، فثق أن النور لن يصل إليك .

ساكن الكهف: إذا تعرضت لنور الشمس فسوف أتعرض لأشعتها المحرقة .

الصديق : عليك أن تتعرض للنور — مهما كلفك ذلك — فإن النفع لن يصل إليك خاليا من الشوائب .

ساكن الكهف: فيم التعجل والإسراع ؟ سوف أتعرض للنور عندما تنكسر حدة الشمس ، فأفوز بنورها ، وأسلم من حدتها ، وأضرار أشعتها .

الصديق : (مشيرا إلى شجرة من أشجار التين القريبة من الجبل) أرأيت لو احتجت إلى هذه التينة الناضجة أكنت تستأنى حتى تأتيك مقشرة ؟ إنك يا صديق لن تخلص إلى لبابها إلا بعد أن تتأثر أناملك الخمس بوخز أشواكها الدقيقة .

ساكن الكهف: ولكنى ما اقتربت منها — وهى على حالتها هذه — حرصا على أناملى من وخز شوكها .

الصديق : إذا فلا تأسف إذا مت محروما نتيجة كسلك وبلادتك .

ساكن الكهف: إن أسفت أو لم آسف ، فإن ذلك لن يؤثر أبدا فى المصير المحتوم .

الصديق : ولا تنقم أيضا على من يأكلون التين ، (ومد يده إلى تينة ناضجة وانتزعها من الشجرة وقشرها والتهمها وهو يضحك ساخرا بساكن الكهف) .

ساكن الكهف: إن نقمتى يا صديق لا تمنعك ولا تمنع غيرك عن أكل التين .

الصديق : ولا تنقم على الحياة . لأنها حرمتك من التينة التى بجوار كهفك وجعلتها من نصيبى . وانقم على نفسك التى استنامت إلى الكسل .

ساكن الكهف: إننى لا أنقم على الحياة ، ولكن أنقم على الأحياء الذين صبغوها بالصبغة التى تراها ، إننى لا أنقم عليك أكل التينة ، ولكنى أنقم عليك سرقتها .

الصديق : (يستغرق فى ضحك ساخر) .

ساكن الكهف: ومم تضحك يا صديق . ؟

الصديق : لأنك مضحك . ألم تعلم بأن التينة لم تنضج إلا ليأكلها من كانت فى متناول يده .

ساكن الكهف: ويحرم زارع التين من نتيجة كدحه . ؟

الصديق : إن زارع التين غبى ولولا ذلك ما زرعها وتركها بدون حراسة لتمتد إليها يد غيره . .

ساكن الكهف: إن الذين يزرعون التين أغبياء مساكين ، أهكذا تعتقد يا صديق .

الصديق : وماذا تريدنى أعتقد فيمن يزرعون التين ويتركون حراسته ؟ بلا شك أنهم أغبياء .

ساكن الكهف: وماذا تسمى . الذى يسرقون التين ؟

الصديق : إنهم بغير شك أقوياء .

ساكن الكهف: من المضحك فينا ؟ أنا أم أنت ؟ أنت تعتد الذين يسرقون التين فى غفلة الحراس أقوياء . والذين هم أمثالى لا تمتد أيديهم إلى التين تسميهم كسالى بلداء . والذين زرعوا التين أغبياء . ها . ها . ها . إنه منطق عجيب واعتبارات أعجب .

الصديق : ليس هناك ما يدعو إلى العجب . إنه منطق الحياة !! واعتباراتها الواقعية . إن ذلك الزارع الغبى الذى تهاون فى حراسة تينه يجب أن يدفع ضريبة غبائه فيحرم من ثمرته . وأنت يجب أن تدفع ضريبة كسلك . فتعيش محروما . أما أنا فعامل قوى نشيط يجب أن آكل التين نتيجة العمل والقوة والنشاط .

ساكن الكهف: قل إن هذا منطق الغابة لا منطق الحياة .

الصديق : يضحك ويستغرق فى الضحك ، ويستأنف قائلا :

أو ظننت أن الحياة غير الغابة . إنك تضحكنى كثيرا يا صديق وتحملنى على أن أسلكك فى زمرة الأغبياء .

ساكن الكهف: أنحن ما زلنا فى الغابة يا صديق ؟

الصديق : أظننت أننا خرجنا عنها ؟ إن هذا إمعان منك فى الغباء .

ساكن الكهف: إذا فأين ما ابتدأت به حديثك حينما قلت لى إنك إذا لم تتعرض إلى الشمس فثق أنه لن يصل إليك النور ، فأى نور تعنى يا صديق ؟

الصديق : أعنى نور الغابة المنبعث من شمسها .

ساكن الكهف: إن نور الغابة وشمسها لا يغريانى على التعرض إليهما . ولظلمة الكهف التى تحيط بى خير من النور ، نور الغابة المنبعث من شمسها .

الصديق : إن الغابة لا تسعد سكان الكهوف المظلمة إذا لم يخرجوا منها .

ساكن الكهف: نعم ، نعم ، إذا كان سكان الكهوف لا يحفلون بغير السطو ولا يعتمدون إلا على المخلب والأظفار . والغابة نفسها لا تحفل إلا بهم ، وأنا — يا صديق — لست منهم فى شىء .

الصديق : إن كهوف الغابة ، وإن كانت مقرا للوحوش

الضارية . فلا تنس أنها قد تكون مقرا لديدان الغابة وحشراتها . وهؤلاء لا يتعرضون لنورها لأنهم يعلمون أن إبادتهم رهن تعرضهم لنورها .

ساكن الكهف: إن ذكاءك يا صديق أقبح من غبائى .

الصديق : ولمه ؟

ساكن الكهف: لأنك ترى أن الله لم يخلق غير الوحوش الضارية والديدان الحقيرة .

الصديق : إنك واهم يا صديق . فأنا أعلم أن الله خلق إلى جانب الوحوش والديدان ملائكة وشياطين . ولا علاقة لى بأحد منهم . إلا إذا كنت يا صديقى — تنتسب إلى صنف من هذين الصنفين فحينئذ تكون علاقتى بمن تنتسب إليهم وثيقة . وذلك بالنظر لوثيق الصداقة التى بينى وبينك .

ساكن الكهف : أتعتقد أن هناك شيئا اسمه الصداقة .

الصديق : نعم . نعم .

ساكن الكهف: ألا تخبرنى عن هذه الصداقة ، أهى من سمات الملائكة أم هى من سمات الشياطين أم هى من سمات الوحوش والديدان ؟

الصديق : أوه ، إنك تضايقنى بغبائك . ألا تعلم أنه لا مجال للصداقة فى عوالم الوحوش والديدان كما أن

الملائكة فى عالم يختلف عن عالمنا . وليس للصداقة بين الشياطين أثر .

ساكن الكهف: إذا فأين مجال الصداقات ؟

الصديق : فى عالمنا عالم الإنسان . وهذا هو العالم الوحيد الذى يحفل بها .

ساكن الكهف: ولم لا يكون للصداقة مجال فى العوالم الأخرى . ؟

الصديق : كيف تريد للصداقة مجالا بين الوحوش ، إن من يعتمد على الغاب والمخلب لا يعرف للصداقة معنى . أما الحشرات والديدان فهى مخلوقات حقيرة وحقارتها لا تسمو بها إلى فهم المعانى السامية التى تنطوى عليها كلمة صداقة . والشياطين ليست لها قلوب فهم لا يحسون بالحاجة إلى الأصدقاء . أما الملائكة فالصداقة عندهم جزء من النقاء والطهارة التى هى من سماتهم . وليس بين الملائكة عداء . . فهم آمنون من أن يفجعوا فى هذا المعنى السامى الجميل فى أحد منهم .

ساكن الكهف: لقد أوقع غبائى ذكاءك فى الشرك يا صديقى . لقد اعترفت أن هناك عالما غير عالم الغابة وغير عالم الملائكة والشياطين ، هذا العالم يقال له عالم الإنسان ، وعالم الإنسان هو عالمنا . فكيف تريد

لهذا العالم أن يحيا حياة الغابة . ؟ وكيف ترى أن الأقوياء يجب أن يسرقوا التين . وأن زارع التين يجب أن يحرم منه لأنه غبي أهمل واجب الحراسة . أرأيت كيف تفرق — أردت أم لم ترد — بين عالم الغابة وعالم الإنسان . إن عالمنا — يا صديقي — غير عالم الغابة . فكيف تريده يحيا حياة الغابة ؟ وكيف تتهمنى بالغباء . ألأنك رأيتنى لا أرضى للإنسان حياة الغابة . إننا نزعم أننا أسمى من سكان الغابة . ولا يعوزنا الدليل على تأييد ما نزعم .

الصديق : لا لا ياصديقي . إن الإنسان أو هذا العالم الإنسانى كاذب فى زعمه .

ساكن الكهف: إذا فلماذا يشقى نفسه بطلب المعرفة . ويعتد التغاضى عنها تسفلا لا يليق به . وانظر إلى مخلفاته فى هذا السبيل . وكم بذلت الأجيال من الجهد وكم أنفقت من الأموال لحفظ هذه المخلفات التى تحمل المعرفة فى طياتها . فيم كل ذلك ؟

الصديق : أوه إنه يغالط فلا تعتد بمغالطاته .

ساكن الكهف: إنك مضحك . أيغالط الإنسان نفسه بنفسه . إنها لمأساة أصيب بها الإنسان فى عقله وإدراكه إن كان يغالط نفسه .

الصديق : ألم أقل لك يا صديق إنك غبى . إن الإنسان لايغالط نفسه بنفسه . وإنما هو يغالط غيره ، الذكى يغالط الغبى . والقوى يغالط الضعيف .

ساكن الكهف: أتصمنى بالغباء لأنى أفهم المعانى بغير ما تفهمها . إن فهمى للإنسانية وما تضم من أفراد وجماعات وشعوب . إنما هى شىء واحد ، فمن غالط غيره فإنما يغالط نفسه .

الصديق : وكيف ذلك ؟

ساكن الكهف: إنك إن خدعت غيرك ، أو فتكت به ، أو خنته ، أو ظلمته ، أو قسوت عليه ، أو انتهكت حرمته ، فإنما أنت تنحدر بالإنسانية فى شخصك إلى عالم الثعالب الماكرة والوحوش الكاسرة والديدان الحقيرة ، وصرت بينها عضوا ملوثا ، وتنشر العدوى إلى بقية الأعضاء ، وإذا تسمم بقية الأعضاء تسمم الهواء الذى يحيط بها . وبذلك تفقد الحياة الإنسانية صحتها ونقاءها وتعود بها إلى حياة الغابة .

الصديق : إن شبح الغابة أفسد عليك تفكيرك . أو هو الغباء الذى لاحيلة لى فى إزالته عنك وتخليصك منه . أو أنك أصبت بفساد المزاج حتى تداخلت عليك المعانى

ولم تعد تفرق بين ما تجب فيه التفرقة . فإذا رأيت ضعيفا مات من البؤس ورأيت غبيا ذاب من الحرمان ورأيت فى مقابل ذلك قويا غرق فى النعمة وذكيا وصل إلى الذروة قلت إننا نعيش فى الغابة . أصلح يا أخى من منطقك . ورتب تفكيرك ترتيبا مستقيما . قل كما يقول الناس إن حرمان الغبى ضريبة غبائه . وبؤس الضعيف ضريبة ضعفه . ونعمة القوى نتاج قوته . ومجد الذكى ثواب ذكائه ، أعط لذوى المواهب استحقاقهم يستقم تفكيرك وبالتالى تستقم حياتك .

ساكن الغاب : ها . ها . ها ، إنك بذكائك يا صديق لا تستطيع ولن تستطيع أن تفهمنى .

الصديق : وماذا يضيرنى إذا لم أفهمك ما دمت أفهم الحياة فهما صحيحا لن تصل إليه أنت بغبائك هذا ولو فكرت فيه ألف عام .

ساكن الكهف: إن كان الفهم الصحيح أن نقسر عقولنا على فهم الحياة كما تفهمها أنت وأمثالك فإن ألف عام غير كافية لذلك . إلا إذا جحدنا الأديان وسخرنا بالدماء المسفوكة فى سبيل تحقيق مثل الإنسان . وطمسنا هذه المعالم والمنارات التى أقيمت لهداية الناس .

وهدمنا المساجد والمعابد والكنائس والصوامع وقوضنا دعائم الأخلاق . وأحرقنا كل مخلفات الإنسانية من نتاج القرائح والعقول . أما وكل ذلك قائم بيننا ولا يعدم من يدافع عنه . وإن أدى الأمر إلى التضحية بالنفس فى سبيل حفظه وصيانته . فإن فهم الحياة كما تفهمها أنت وأمثالك يعد مغالطة كبرى . لا يكون بها النطق السليم منطقك ومنطق أمثالك الأذكياء .

الصديق : لا . لا حاجة إلى التحطيم والتدمير ، وهذه ميزتى الكبرى عليك ، إننى فهمت الحياة فهما صحيحا دون أن يلجأ عقلى إلى التفكير فى التحطيم والتدمير ومحو مخلفات الإنسانية ، ولكن عقلك لا يريد أن يفهم إلا إذا حطم ودمر وعاث فى الأرض تخريبا . وإلا عد ذلك مغالطة كبرى ، والمسألة بينى وبينك يسيرة جدا ، ولكن لا تريد إلا أن تجعل البون شاسعا بين فهمى وفهمك ، أعط القوى ربح القوة ، وأنزل بالضعيف خسارة الضعف . واترك ذوى الخسارة يجدون العزاء فى مخلفات الإنسانية ، المقامة مناراتها ، المثبتة دعائمها ، فإن ذلك كفاء نفوسهم الضعيفة . أما أنك تضع الضعفاء والأقوياء

فى ميزان واحد . وتريد تساوى الكفتين ، فذلك هو المستحيل ، لأن كفة القوى سترجح بالرغم منك . تلك هى المسألة اليسيرة التى لم ترد أن تفهمها ، إن فهمها لا يحتاج إلى كبير عناء ياصاحبى المسكين . ودعك من هذه الاضطرابات الذهنية التى لا تقوى على مقابلة الحياة بواقعها الملموس .

ساكن الكهف: فليكن اضطراب ذهنى ألم أكن أنا وحدى فريسته ؟ ولكن ألا ترى أننا إن سلكنا هذا الطريق فى الفهم رجعنا إلى الغابة ، وتحكم فينا سلطانها الثقيل المرهق .

الصديق : إن الغابة ما زالت عامرة بأهلها رغم سلطانها الثقيل المرهق .

ساكن الكهف: ولكن الغابة وأهلها — يا صديقى — ما زعموا ما نزعم . وليس لسكان الغابة ما يدفعهم لدعوى التسامى عما هم فيه ، ثم هم يأتون أفعالهم مدفوعين بغرائزهم ، ولا يحتكمون إلا إليها وتلك شريعتهم ، ولم تزعم أنها تحضرت كما نزعم ، أو أنها تحتكم إلى شريعة عادلة .

الصديق : أتريد من التحضر أن تهضم حقوق الأقوياء وترفع الضعفاء إلى مستواهم ؟

ساكن الكهف: أو تريد أن تكون الإنسانية التى تزعم التمدن تساوى سكان الغابة فى معاملة بعضها بعضا .

الصديق : إن الإنسانية المتمدنة أتاحت للضعفاء سبيل العزاء بالمحافظة على مخلفاتها ، ويكفى هذا فارقا بين حياة الإنسانية ، وحياة الوحوش فى الغابة .

ساكن الكهف: أمحافظة الإنسانية على مخلفات الأجيال وثمار العقول والقرائح هى كل ما للضعفاء من حقوق قبل الأقوياء ؟

الصديق : لولا دعوى الإنسانية — القائمة — والتى من مصلحة الأقوياء عدم إسقاطها لما فرض عقلى حقوقا على الأقوياء للضعفاء .

ساكن الكهف: ليست هى دعوى منكورة لا تجد ما يؤيدها يا صديق . إنها دعوى يؤيدها الضعفاء والأقوياء بكل ما فى هؤلاء وهؤلاء من طاقة لتأييدها . . . ولكن الإنسانية جهلت مقوماتها وضاع صوت الضمائر والقلوب فى ضوضاء الغرائز والشهوات ، إن الإنسانية السامية لا تتنكر لغرائزها ، ولكنها لا تغفل حنينها للتسامى ، إن هذا الحنين المذيب الذى تتفجر به قلب الإنسانية الفينة بعد الفينة

فى كل جيل من أجيالها فى تاريخها الطويل آية على شعورها بوجوب الإصغاء إلى ذلك الصوت الذى يجلجل فى ضميرها . إن الإنسان الإنسان لا يسرق التين، ومعنى الإنسانية أن يأمن زارع التين على تينه . لأن له من ضمير الإنسانية ما يطمئنه على تينه ، وإخوانه لا يعتدون عليه فى غفلته . أما إذا سرق تين الغبى . فسيكون التين المسروق الشرارة التى تشعل حقد الأغبياء ثم لا يجد الأذكياء من الأغبياء ملاذا ولا راحما .

الصديق : لا أدرى إلا أنك تريد قسر الحياة على السير بمنطقك . إن للأذكياء والأقوياء طاقة لا بد لها من الانطلاق . ولن تقوى التعاليم على وقفها وتعطيلها .

ساكن الكهف: وللأغبياء أيضا طاقة . تقتضيك ضمان حبسها . ولحبس طاقتك أهون بكثير من ضمان حبس الطاقة فى غريمك يا صديق .

الصديق : لقد ضمن الأذكياء حبس تلك الطاقة المزعومة أجيالا كثيرة فى الماضى ولا يعز عليهم أن يضمنوها أجيالا كثيرة فى المستقبل .

ساكن الكهف: ولكنهم لم يضمنوا حياة مطمئنة . ومازالوا يحذرون صحوة صاحب التين المسروق . ويخشون منه أكثر خشية من الله . ولله — بعد ذلك — معهم حساب عسير .

الصديق : نعم ، نعم إنهم يحيون خائفين ، ومتى استمتع السارق بطمأنينة المسروق فى حياته ؟ ولله بعد ذلك معهم حساب عسير .

دار مصر للطباعة
شارع سوق السلاح - الفجالة

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 073552653